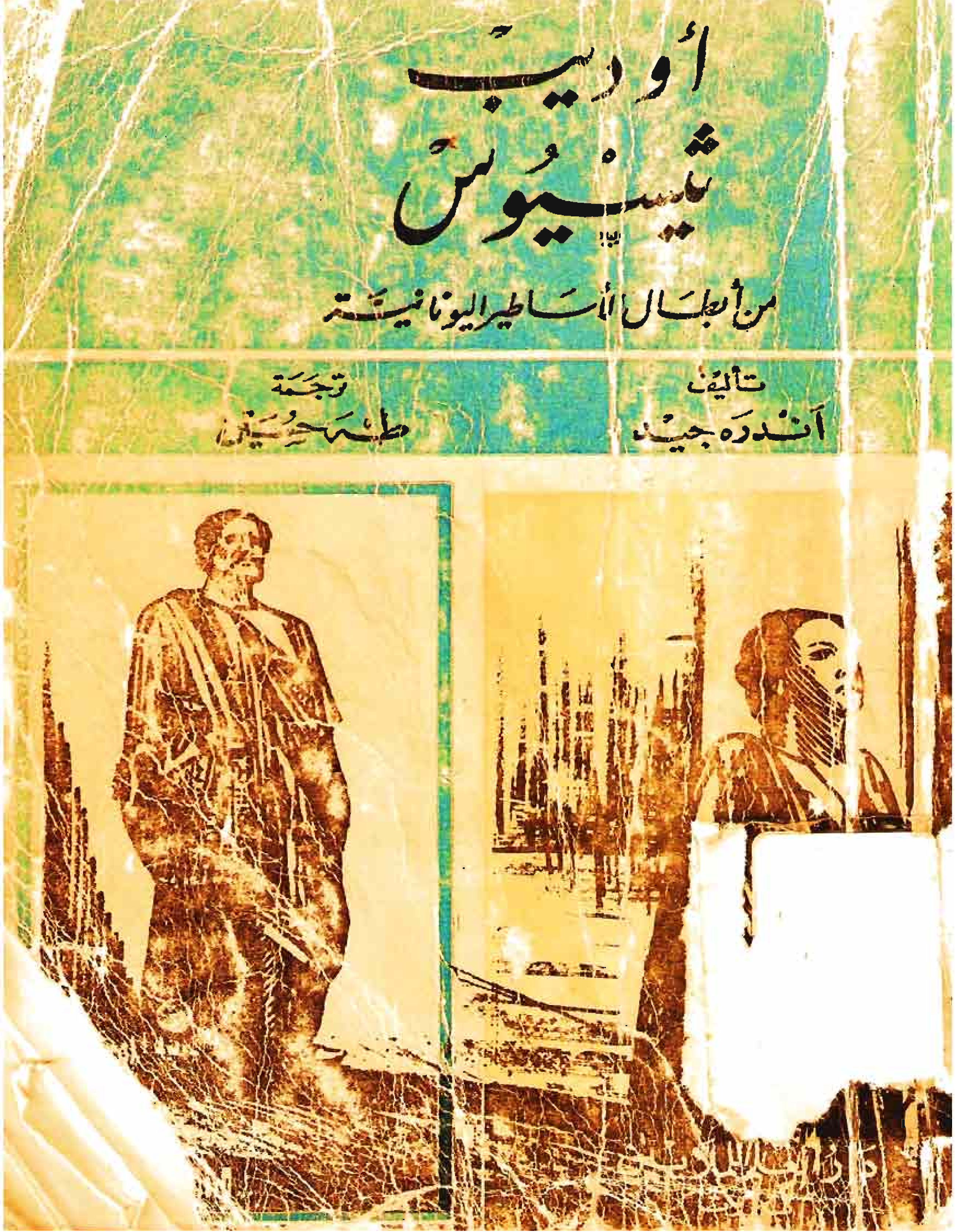


أوديب
ثيسيوس
من أبطال الأساطير اليونانية
تأليف
أندره جيد
ترجمة
طه حسين

أُوديب
ثيسيُوس

أوديب

ثيسيوس

من أبطال الأساطير اليونانية

تأليف
أندره جيد

ترجمة
طه حسين

دار العلم للملايين

ص.ب ١٠٨٥ - بيروت

العنوان الأصلي للكتاب
بالفرنسية

ANDRE GIDE

OEDIPE

*

THESEE

الطبعة الأولى ١٩٤٦
الطبعة الرابعة
شباط (فبراير) ١٩٨٠

Mon cher André Gide,

Pour vous avoir entendu nous lire «Oedipe» et «Thésée», je sais la particulière tendresse que vous avez pour eux.

C'est pourquoi je leur appris l'arabe, afin qu'ils puissent aux lecteurs de l'Orient dire votre message, qui est confiance, courage, sérénité.

Ils témoigneront aussi de cette grande admiration que j'ai pour vous, et qui, depuis notre rencontre, est devenue une si précieuse amitié.

TAHA HUSSEIN

Le Caire, le 7 Octobre 1946.

صديقي أندريه چيد

سمعتك تقرأ لنـــا قصتي «أوديب» و «ثيسيوس» فعرفت الحنان الخاص الذي تؤثرهما به .

ومن أجل هذا علمتهما العربية ليبلغا إلى قراء الشرق رسالتك التي هي ثقة وشجاعة واستبشار .

وسيشهدان كذلك بما أضمر من إعجاب بك قد أصبح منذ التقينا وداً كريماً .

القاهرة ، ٧ أكتوبر ١٩٤٦   طه حسين

مقدمة

بقلم المترجم

١

كان لايوس *Laius* منذ ارتقى إلى عرش ثيبا *Thèbes* يحيا حياة سعيدة راضية مع زوجته چوكاست *Jocaste* . ولم يكن يكدِّر صفو هذه السعادة إلا شيء واحد وهو أن الزوجين لم يرزقا الولد . فخطر للملك أن يستشير أپولون *Apollon* في محنته هذه لعله أن يجد له منها مخرجاً، وأن يتم عليه نعمة الملك السعيد المجيد الذي لا يقتصر على شخص صاحب العرش ، وإنما ينتقل منه إلى ذريته التي تتوارثه أجيالها إلى آخر الدهر . فلم يكن لايوس قصير الأمل ، ولا محدود الأمد . لم يكن يريد أن يملك ليس غير ، وإنما كان يريد أن ينشيء أسرة مالكة . ولكن أبولون لم يكن سمحاً ، ولا مواتياً ، فأظهر للملك في شيء من الإلغاز ما خبأه له القضاء . أعلن إليه أنه إن رزق الولد فسيقتله ابنه . وقد عاد لايوس من معبد أپولون مهموماً ، شديد الحزن ،

موزَّع النفس بين الحرص على الحياة والرغبة في الولد الذي يرث الملك ، ويخلد الذكر . وقد شك طويلاً أو قصيراً بين هاتين العاطفتين ، ولكنه آثر الحياة آخر الأمر على الولد ، فرضي العُقم بل رغب فيه وحرص عليه . غير أن القضاء ماض إلى غايته دائماً ، فما هي إلا أن يرزق لايوس من زوجه چوكاست هذا الغلام الذي أنذره أپولون بأنه سيذيقه الموت . هنالك استأثر الحرص على الحياة بنفس الملك ، فأزمع أن يقتل ابنه قبل أن يقتله هذا الابن ، وأسلم الطفل إلى راع من رعاته ، وكلفه أن يلقيه على الجبل نهباً للسباع . ولكن الراعي لم يكن قاسي القلب ولا غليظ الطبع ، فلم يُلق الطفل على الجبل ولم يقتله ، وإنما أسلمه إلى راع آخر لملك كورنت *Corinthe* في بعض الروايات ، أو علقه إلى شجرة من أشجار الجبل من رجليه اللتين شقهما ، وجمع بينهما بحبل متين . ومهما يكن من اختلاف الروايات ، فإن الصبي لم يمت نهباً للجوع والبرد والجراح ، وإنما تلقاه راعي كورنت فعطف عليه ورفق به . وكان ملك كورنت بوليب *Polybe* شقياً بعقم امرأته ميروپ *Mérope* ، فيدفع الراعي إليه هذا الصبي ويتبناه الملك وينشئه تنشئة أبناء الملوك . وقد شب الصبي قوي الجسم والنفس جميعاً ، ماضي العزم ، صارم الإرادة ، معتدّاً بنفسه ، جاهلاً لأصله ، بعيد الأمل مع هذا كله عظيم الأطماع . ولكنه يرى من لِداته وأترابه ما يريبه ، فهم يلمحون له بأنه ليس ابن الملك . وهو يضيق بهذه الريبة ويريد أن يعرف جلية أمره ، فيذهب إلى معبد أپولون ليتبين

حقيقة الأمر في وحي الإله. والقضاء صارم حازم قاس لا يعرف رفقاً ولا ليناً ، وإذا أپولون لا ينبىء الفتى بأصله ، ولا يزيل من نفسه الريبة ، وإنما يضيف شكاً إلى شك وخوفاً إلى خوف ، فينبىء الفتى بأنه سيقتل أباه ، وسيتزوج من أمه ، وسيقترف هاتين الخطيئتين المنكرتين .

وكان لايوس قد أراد أن يقاوم القضاء فيخلص من هذا الصبي الذي سيذيقه الموت ، فانتصر القضاء على إرادة لايوس ، وعاش الصبي ونما حتى أصبح قادراً على اصطناع السلاح . وهذا الفتى ينبئه أپولون بأنه سيقتل أباه ويقترن بأمه ، فيريد أن يقاوم القضاء ، وهو لا يعرف لنفسه أباً غير پوليب ملك كورنت ، ولا أمّاً غير ميروپ ملكتها . فليجتنب إذن كورنت، وليأخذ طريقه إلى أي بلد آخر بعيد عن هذه المدينة حتى لا يُغرَى بقتل أبيه أو اتخاذ أمه لنفسه زوجاً . وإنه لفي بعض الطريق عند مكان شديد الضيق، وإذا عربة تعترضه وتأخذ عليه سبيله، فيكون الخصام باللسان ، ثم يكون الاقتتال ، وإذا الفتى يقتل صاحب العربة ، وقد تفرق من كان معه من خدم وأنصار . ويمضي الفتى لوجهه راضياً عن نفسه ، مطمئناً لحسن بلائه، غير مقدر أنه قد أنفذ بعض ما كتب القضاء عليه ، فقتل أباه ، واقترف أحد الإثمين اللذين أنذره بهما أپولون . وهو يمضي في طريقه حتى يدنو من مدينة ثيبا ، فيسمع بأن المدينة مروعة بخطر داهم ونكر مبين . فهذا كائن غريب قد هبط عليها من

السماء أو نجم لها من الأرض ، جاءها من حيث لا تعلم على كل حال ، واستقر غير بعيد من المدينة على صخرة مرتفعة يرصد من يمر به من الناس ، فيلقي عليهم لغزه الغريب : ما كائن له صوت واحد ، يمشي على أربع إذا أصبح ، وعلى اثنتين إذا زالت الشمس، وعلى ثلاث إذا أقبل المساء؟ وهذا الكائن الغريب الذي اتخذ جسم الأسد ، ورأس المرأة ، ووصل بجسمه جناحين ، والذي يسميه اليونان سفنكس *Sphinx* ، ويسميه المصريون القدماء بو الهول ، أو أبا الهول ، لا يعفي أحداً من الإجابة على هذا السؤال وحل هذا اللغز. والناس جميعاً يعجزون عن الإجابة ولا يجدون حلاً لهذا اللغز ، وهو يعاقبهم بالموت على هذا العجز والإخفاق . وقد عظم الكرب ، وعم البلاء ، وامتلأت قلوب أهل المدينة خوفاً ورعباً ، حتى اضطر كريون *Créon* أخو الملكة جوكاست والناهض بأعباء الملك بعد قتل لايوس أن يذيع في أقطار الأرض أن من أراح المدينة من هذه المحنة فله تاجها وله الملكة زوجاً .

وقد سمع الفتى بأنباء هذا الكائن الخطر ، وبهذا الوعد الرائع الذي يبذل لمن ينقذ منه هذه المدينة البائسة ، وهو قوي الجسم والنفس ، ذكي القلب ، حديد الفؤاد، بعيد الأمل، شديد الطموح ، فيقبل على أبي الهول يجرب ذكاءه وقوته ، ويغامر بحياته في سبيل المجد والملك . وأبو الهول يلقي عليه السؤال فيجيبه الفتى بأن الإنسان هو الذي يمشي على أربع إذا أصبح

لأنه يحبو في الطفولة ، ويمشي على اثنتين إذا انتصف النهار لأن قامته تعتدل وتستقيم إذا شب، ويمشي على ثلاث إذا أقبل المساء لأنه ينحني على العصا إذا أدركته الشيخوخة ، وقـد أفحم أبو الهول وألقى بنفسه من أعلى الصخرة فمات . وظفر الفتى بعرش ثيبا ، واتخذ الملكة له زوجاً ، واطمأن إلى أنه قد أفلت مما تنبأ له به وحي أپولون ، فلم يقتل أباه ، وأين هو من عـابر السبيل ذاك الذي قتله ! ولم يقترن بأمه ، وأين هو من ملكة ثيبا هذه التي تزوج منها ! لقد ترك أبويه في كورنت وأسس لنفسه ملكاً جديداً، وقد رضي عن رعيته ورضيت عنه رعيته ورزق الولد. فله ابنان إتيوكل *Étéocle* وپولينيس *Polynice* ، وله ابنتان أنتيجون *Antigone* وإسمين *Ismène* . وهو يرى نفسه سعيداً موفوراً راضي النفس رخيّ البـال . ولكن المدينة تـُمْتَحَن ذات عام بوباء يفسد عليها أمرها كله فساداً عظيماً ؛ فقد هلك الزرع وجف الضرع وأمرف الموت في كل حي؛ فالطير تسّاقط من السماء ؛ والماشية تخر إلى جنوبها ، والناس يستبقون إلى القبور حتى تضيق بهم وحتى يعجز بعضهم عن دفن بعض، وقد عم البلاء وعظم الكرب واشتدت المحنة حتى بلغت أقصاها . وأهل المدينة يستعطفون الآلهة بالضحايا والقرابين ويتوسلون إليهم بالصلاة والدعاء ، فلا يغني عنهم هذا كله شيئاً . وهم قد هُرعوا إلى ملكهم يفزعون إليه ويستعينونه ، فيرسل الملك إلى معبـد أپولون من يؤامر الإله ويستشيره في هذا البلاء العظيم . ويعود رسول الملك إليه يحمل جواب الإله واضحاً غامضـاً

ومُعَمَّى صريحاً ، كما تعوّد أپولون أن يجيب دائماً . أجـــاب أپولون بأن الآلهة لن يكشفوا الضر عن هذه المدينة إلا إذا ثأرت للايوس من قاتله .

ولم يكد الملك يتلقى هـــذا الجواب حتى أعلن في حزم وصرامة أنه باحث عن هذا القاتل ومنزل به أشد العقاب، وأنه يطلب إلى أهل المدينة أن يعاونوه على ذلك في غير تردد ولا ضعف مهما يكن هذا القاتل. ثم هو لا يكتفي بذلك بل يستنزل اللعنات وغضب الآلهة على هذا المجرم الذي قتل ملكاً وعرّض المدينة لشر عظيم . ولكن الملك لا يكاد يبحث عن هذا المجرم حتى تتبين له الحقيقة منكرة بشعة، فهو المجرم الذي قتل لايوس هناك في ذلك المكان الضيق . وهو الآثم الذي اتخذ أمـــه له زوجاً وعاش معها في هذا القصر وأولدها أبناءه الأربعة .

ليس في ذلك شك، واسمه نفسه يدله على ذلك دلالة قاطعة، فهو أوديب *Œdipe* ذو الرجل المتورمة ، ورجله متورمة حقاً من أثر ذلك الثقب الذي علق به إلى الشجرة في طفولته الأولى على الجبل . يعرف ذلك من الراعي الذي كُلّف قتله، ويعرف ذلك من الراعي الذي أنقذه من الموت وأسلمه إلى ملك كورنت. هنالك يتبين أوديب وتتبين چوكاست أن لا مردّ لمـــا كتب القضاء . فلم يغن عن لايوس تخلصه من الصبي ، فقد عاش الصبي حتى قتله . ولم يغن عن چوكاست تخلصها من الصبي فقد عـــاش الصبي حتى اقترن بهـــا . ولم يغن عن أوديب فراره من قصر

كورنت وتجنبه ملكها وملكتها هرباً من الإثم ، فلم يكن من هذين الزوجين في شيء . وإنما هو ابن لايوس وقد قتل لايوس ، وابن چوكاست وقد تزوج من چوكاست . والمهم أنه قد عرف القاتل الذي يجب أن يثأر منه لتخلص المدينة من هذا البلاء ، فيجب أن يثأر من نفسه إذن ، فإن لم يفعل فستثأر منه المدينة التي لم تكن ترى فيه ملكاً فحسب ، وإنما كانت ترى فيه شيئاً يشبه الإله .

فأما چوكاست فلم تكد تظهر على الحقيقة البشعة حتى خنقت نفسها . وأما أوديب ففقأ عينيه بيديه حتى لا يرى الضوء .

وتختلف الروايات بعد ذلك أو قل تختلف الروايات قبل ذلك ، ويزيد في اختلافها فن شعراء الممثلين الذين اتخذوا هذه القصة موضوعاً للتمثيل ؛ فقوم يرون أن جوكاست لم تقتل نفسها ، وإنما عاشت حتى رأت اختلاف ابنيها على العرش وتساقيهما الموت ، ولم تقتل نفسها إلا بعد أن رأتهما صريعين . وقوم يرون أن أوديب قد نفى نفسه من الأرض بعد أن فقأ عينيه وهام غريباً تقوده ابنته أنتيجون حتى انتهى آخر الأمر إلى ضاحية من ضواحي أثينا فمات فيها . وآخرون يرون أنه لم ينف نفسه ، وإنما نفاه ابناه بعد أن وُليا المُلك . وآخرون يرون أن ابنيه قد أمسكاه في القصر ولم ينفياه، وإنما نفاه كريون بعد أن مات ابناه ، فلجأ إلى الضاحية الأثينية ومات فيها .

هذه هي القصة التي روتها الأساطير اليونانية منذ أبعد العصور ؛ فقد تحدثت بها الأودِسّة *l'Odyssée* في نشيدها الحادي عشر ، كما تحدثت بها أقاصيص ثيبا نفسها بعد ذلك .

٢

والشعراء الممثلون من اليونان يعتمدون في تمثيلهم بحكم الفن نفسه وبحكم الدين أيضاً على الأساطير . فالأبطال القدماء هم موضوع المأساة اليونانية التي تصور حياتهم أو تصور ما تمتاز به حياتهم من المحن والخطوب . وتصوير هذه المحن التي ألمت بالأبطال وعرضها على النظارة في ملاعب التمثيل شيء كان يرونه فناً ويرونه ديناً . فيه الجمال الأدبي الذي يعظ النفس ويذكي القلب ويثير العاطفة وينمي الفضيلة ويرفع الإنسان عن صغائر الحياة إلى جلائل الأمور ، وفيه تقديس الآلهة وتمجيد الأبطال والإشادة بالقديم وما فيه من مآثر كتب لها الخلود . وقد كان اليونان قبل أن ينشأ فن الغناء نفسه يتقربون إلى آلهتهم بإنشاد الشعر القصصي والاستماع له . ثم نشأ الغناء فتقربوا به إلى الآلهة ، يتغنون حياة الأبطال وحياة الآلهة وما عرض لهم فيها من خير وشر . ثم نشأ فن التمثيل فتقربوا به إلى الآلهة كما كانوا يتقربون بالقصص والغناء . ومن أجل هذا كله تغيرت صور الفن الشعري عند اليونان ولم يتغير موضوعه . فالأبطال والآلهة هم موضوع القصص في الإلياذة والأودسة ، وهم الموضوع الأساسي

لتمثيل الممثلين أيضاً . ومع ذلك فتغير الصورة له خطره العظيم وإن بقي الموضوع ثابتاً مستقراً ، ذلك أن الصورة لم تتغير إلا لأن النفس اليونانية قد تغيرت بحكم ما أحاط بالشعب اليوناني من الظروف . فقد كان القصص اليوناني صورة لحياة الجماعة لا يكاد يظهر فيها من الأفراد إلا شخصية الآلهة والأبطال ، بل لا تظهر فيهـــا شخصية الشاعر نفسه . فلما ارتقت الحضارة وذكت القلوب وقويت شخصية الفرد ، تغيرت صورة الشعر ، فظهر شخص الشاعر أولاً وأصبح الشعر لا يضـاف إلى شاعر مجهول يسمى هوميروس مهما يكن موضوعه ، وإنما يضاف إلى شعراء معروفين يراهم الناس ويتحدثون إليهم ويتحدثون عنهم ، وأصبح الشعر لا يصور الآلهة والأبطال الممتازين وحدهم ، وإنما يصور شخصية الشاعر نفسه ، ويصور معها شخصية كثير من الأفراد ، وما يجدون من لذة وألم ومن حب وبغض ومن عـاطفة وشعور بوجه عام ، ثم أصبح الشعر لا ينشد إنشاداً يسيراً تسنده بـين حين وحين نغمات ساذجة توقـــع على أداة ساذجة من أدوات الموسيقا ، وإنما ينشد إنشاداً معقداً يتشكل فيه الصوت بالأشكال المختلفة التي يقتضيها الغناء ، وتسنده وتريح منه أحياناً أدوات موسيقية كثيرة مختلفة ، ويسنده الرقص أيضاً بحيث يوشك أن يشبه الأوبرا في عصرنا الحديث لولا أنه كان يخلو من حركة التمثيل . ثم تتقدم الحضارة ، ويرقى العقل ، وتقوى الشخصية ، وتظفر الشعوب في المدن بحقوقهـــا السياسية ، فتتغير صورة الشعر . وإذا الحوادث التي كانت تقص في الشعر القصصي ، وتغنى

في الشعر الغنائي ، قد أصبحت تعرض على النظارة في ملعب التمثيل يجريها الشاعر على أيدي أشخاص يمثلون الأبطال والآلهة أنفسهم . وهذا التمثيل نفسه لا يخلو من الغناء والرقص توقعهما الجوقة وقد يشارك فيهما كليهما أو أحدهما الممثلون . وقد أصبح جمهور النظارة ذا شأن خطير ؛ فهو يشارك في حفلات التمثيل لا بشهود التمثيل فحسب ، ولكن كذلك بالقضاء بين المستبقين من الشعراء الممثلين . وقد كان الشعراء يشاركون بأنفسهم في التمثيل أول الأمر ، ثم نشأت طائفة الممثلين المحترفين ، وجعل الشعراء يكتفون بإنشاء الشعر وإرشاد الممثلين وأعضاء الجوقة.

كذلك كانت الحال في القرن الخامس قبل المسيح حين عرض الشعراء الثلاثة الممتازون : إيسكولوس *Eschyle* وسوفوكل *Sophocl* وأوريبيد *Euripide* لحياة الأبطال والآلهة فعرضوها في الملاعب على النظارة من الأثينيين .

وكان من نتيجة هذا كله أن هؤلاء الشعراء وغيرهم من الشعراء الممثلين كانوا يرون من الطبيعي والمألوف أن يعرضوا للموضوعات التي سبقهم إليها القصاص والمغنون ، فينشئوا فيها قصصهم التمثيلي ، بل كان من الطبيعي والمألوف أن يعرض المتأخر منهم لما عرض له المتقدم ، لا يجدون في ذلك حرجاً ، بل يجدون فيه سبيلاً إلى الإجادة والإتقان . فقصة أوديب مثلاً قد عرض لها إيسكولوس ثم عرض لها بعده سوفوكل ، ثم عرض لها بعدهما أوريبيد ، ثم عرض لها شعراء آخرون من اليونان لم

يجد أحد في ذلك حرجاً . وهذه السُّنّة التي سنها اليونان قد انتقلت منهم إلى غيرهم من الأمم ؛ فالرومان في العصر القديم حين حاولوا التمثيل اتخذوا أكثر الموضوعات لقصصهم من التمثيل اليوناني نفسه . فقصة أوديب مثلاً عرض لها منهم غير شاعر . وامتازت قصة سينيك *Sénèque* من هذه القصص التي وضعها الشعراء اللاتينيون. وجرى الأمر على ذلك بعد النهضة الأوروبية في العصر الحديث ، فاستعار شعراء التمثيل من الإنجليز والألمان والإيطاليين والفرنسيين خاصة موضوعات شعرهم التمثيلي من تمثيل اليونان والرومان . وقد وضع الشاعر الإنجليزي دريدن *Dryden* في القرن السابع عشر قصة أوديب ، كما وضع الشاعر الإيطالي ألفييري *Alfieri* في القرن الثامن عشر قصة أوديب أيضاً . اما الفرنسيون فقد فتن شعراؤهم وكتابهم بقصة أوديب منذ أواخر القرن السادس عشر إلى الآن . ولست أحصي شعراءهم الذين عرضوا لهذه القصة ، وإنما أذكر أن كورني *Corneille* قد وضع قصة تمثيلية لأوديب فُتن بها معاصروه ، وأن ڤولتير *Voltaire* قد وضع في أول القرن الثامن عشر قصة لأوديب كثر حولها الحديث والنقد ، وأن شاعرين فرنسيين هما دي سيس *Ducis* وشينيه[1] *M. J. Chénier* وضعا قصتين لأوديب في آخر القرن الثامن عشر وأول القرن التاسع عشر . أما في هذا القرن العشرين فقد عني بأوديب الكاتب الفرنسي

---

(١) هو أخو الشاعر الغنائي العظيم أندريه شينيه .

العظيم أندريه جيد *André Gide* في القصة التي نترجمها في هذا السفر ، كما عني به الكاتب الشاعر المعروف چان كوكتو *Jean Cocteau* في قصته المشهورة « أداة الجحيم » .

فأنت ترى أن السنّة اليونانية التي أتاحت للشعراء ألا ينفروا ممـا سُبقوا إليه قد أصبحت سُنّة أدبية إنسانية شائعة على اختلاف العصور . وأنت ترى كذلك أن قصة أوديب وحدها قد شغلت شعراء كثيرين في الأمم المختلفة على اختلاف العصور ، وما زالت تشغل الشعراء والكتاب إلى الآن . وأكبر الظن أنها ستشغلهم دائماً .

٣

ولا أكاد اذكر من القصص اليوناني القديم الذي شُغِل بـه المحدثون شيئاً تجاوز القرن السابع عشر والثامن عشر إلا قصة « أفجيني في توريس » *Iphigénie en Tauride* التي عني بهـا جوت ، وقصصاً قليلة أخرى طفت في القرن العشرين ، أعظمها خطراً قصة « أوديب » هـذه وقصة « إلكتر » *Electre* و « أمفتريون » *Amphytrion* وقد جددهما چان چيرودو *Jean Giraudoux* ، وقصة أنتيجون وقد جددها چان كوكتو بين الحربين ثم جددها چان أنوي *Jean Anouilh* في هذه الأعوام الأخيرة . وهناك قصص تمثيلية معاصرة جددت أو حاولت أن

تجدد بعض القصص التمثيلي اليوناني القديم ، ولكنها لم تبلغ الملعب أو لم تظفر فيه بفوز باهر ونجح عظيم .

ولعل المُحْدَثين المعاصرين يؤثرون أن يشهدوا القصص اليوناني يعرض عليهم كما تركه أصحابه مع قليل أو كثير من التغيير ، إلا أن يوجد الكاتب الممتاز الذي يستطيع أن يدل بالقصة اليونانية على أكثر مما وصل إليه الشاعر اليوناني القديم ، أو أن يعرضها في شكل أشد ملاءمة لروح العصر الحديث .

وهذا هو الذي فعله چيرودو حين اتخذ إلكترا رمزاً لا للانتقام وحده كما فعل القدماء بل للعدل أيضاً. للعدل الذي يجب أن تبلغه الإنسانية وأن تضحي فيه بكل شيء مهما تكن التضحية قاسية ومهما تكن التضحية غالية ، والذي لا يحفل بانثلال العروش وانهيار النظم وإزهاق النفوس وسفك الدماء وصب الدمار على المدن ، بل يرى في ذلك كله إيذاناً بطلوع فجر جديد . وكما فعل چان پول سارتر *Jean-Paul Sartre* في قصة « الذباب » حين أراد أن يجدد مأساة إلكترا فجعل أخاها هو البطل . ولم يكتف بفكرة الانتقام من الأم التي خانت زوجها وقتلته ، ولا بفكرة العدل التي قصد إليها ووقف عندها چيرودو ، ولكنه عني بالحرية الإنسانية التي وقفت أورست موقف الثائر على ذوس *Zeus* المعارض له ، والتي تقف الإنسان الحديث موقف الثائر على كل شيء المزدري لكل شيء إلا حريته التي تجعله إنساناً يوجد ليعمل ما يشاء أن يعمل وليقول

ما يشاء أن يقول ، غير حافل إلا بنفسه ولا واقف إلا عند نفسه .

إلى شيء من هذا التجديد الأساسي الخطير قصد أندريه جيد حين وضع قصته التمثيلية «أوديب» مجدّداً هذه القصة كما تركها سوفوكل ، غير واقف عندما انتهى إليه سوفوكل ، ولا حافل بما بلغه كورني أو ڤولتير أو غيرهما من الشعراء والكتاب المحدثين . وقد يحسن أن نتبين قبل كل شيء إلامَ أراد سوفوكل حين وضع قصته هذه التي صور فيها مأساة أوديب ؟ وقد أضاعت الأيام ما ترك إيسكولوس وأوريبيد وغيرهما من الشعراء القدماء حول هذا الموضوع بحيث أصبحت قصة سوفوكل هي النموذج القديم الوحيد الذي ألهم المحدثين من الأوروبيين . وواضح أن سوفوكل إنما قصد في هذه القصة كما قصد في أكثر قصصه الأخرى إلى ما يصور لنا صراعة القضاء من جهة وحرية الإنسان من جهة أخرى ، وإلى أن يلائم بين هذين الضدين المختصمين على نحو ما . فالقضاء صارم قاس بالقياس إلى أوديب وإلى أبويه في هذه القصة ، وهو صارم قاس بالقياس إلى أبنائه في قصة أخرى هي قصة أنتيجون .

القضاء صارم قاس لأنه قد كتب في غير حكمة بينة للإنسان على لايوس أن يموت مقتولاً بيد ابنه ، وكتب على چوكاست أن تقتل نفسها بعد أن تتورط في إثمها ذاك البشع الشنيع ، وكتب على أوديب أن يكون قاتلاً لأبيه متزوجاً لأمه مسبباً لموتها

فاقئاً عينيه بيده . ومن البين أن أحداً من هؤلاء الأبطال لم يكن حاضراً حين كتب القضاء ما كتب ، ولم يقترف قبل وجوده إثماً يغري به القضاء ويسلط عليه قسوة الأقدار . فهناك إذن علة خفية لا يدركها الإنسان تدفع القضاء إلى أن يدبر أمر الناس والآلهة كما يشاء . ومن يدري ! لعل هذه العلة الخفية لا وجود لها ، ولعل القضاء يمضي كما يريد لا يخضع لقانون ولكنه على كل حال صارم قاس بالقياس إلى الآلهة والناس جميعاً . غير أن الإنسان ليس خاضعاً خضوعاً كاملاً شاملاً مستسلماً لهذا القضاء، وإنما هو مستمتع بشيء من الحرية قد يكون قليلاً وقد يكون ضئيل الأثر وقد لا يكون له أثر ما ، ولكنه موجود على كل حال . وآية ذلك أولاً أن الإنسان يريد أن يعرف ما أضمر له القضاء يُعمل في ذلك عقله ويستنبىء عن ذلك وحي الآلهة ؛ فهو إذن لا يخضع لأحكام القضاء غير عالم بها أو غير مفترض لوجودها كما يخضع لها الحيوان وكما تخضع لها الكائنات الأخرى التي تأتلف منها الطبيعة . وليس قليلاً أن يتلقى الإنسان ما كتب له من خير وما قضي عليه من شر وهو عالم به وعالم بالمصدر الذي يسوقه إليه أو يسلطه عليه .

وهناك آية ثانية على حرية الإنسان أمام القضاء ؛ فهو لا يطمئن إلى العلم بما كتبت الأقدار عليه ، وإنما يحاول أن يخلص مما قضي عليه من الشر . وليس المهم أن ينجح أو يخفق في هذه المحاولة وإنما المهم أن يحاول . فلايوس وجوكاست يعلمان أن

ابنهما سيقتل أباه ويتزوج أمه ، فيحاولان التخلص من هذا الشر بقتل الصبي قبل أن ينمو ويقترف هذه الآثام ، ولا عليهما بعد ذلك أن يفلت الصبي مما دبرا له من الموت . وأوديب يعلم بما دبر القضاء له ، فيفر من قصر الملك في كورنت محاولاً أن يتجنب الإثم ، ولا عليه بعد ذلك أن يقتل لايوس ، فلو قد عرف أنه أبوه لما قتله، ولا عليه أن يتزوج جوكاست فلو قد عرف أنها أمه لما اقترن بها . وهناك آية أخرى على حرية الإنسان أمام القضاء، وهي أعظم من هاتين الآيتين خطراً وهي التي يصورها لنا سوفوكل في قصة « أوديب ملكاً » ، ولكنه يصورها تصويراً أعظم روعة وأكثر جلاء في قصته الأخرى «أوديب في كولونا»، وهي أن الإنسان حين يعجز عن رد القضاء لا يرى نفسه منهزماً ولا يرى نفسه مسئولاً عما تورط فيه من الإثم . فهو يؤمن بأن التبعة يجب أن تكون نتيجة للحرية وأن يكون حظ الإنسان من هذه التبعة ملائماً لحظه من الحرية ، فأوديب تدفعه الغريزة الإنسانيه الأولى كما تدفعه التقاليد الموروثة إلى أن يعاقب نفسه حين يستكشف الإثم المروع الذي تورط فيه ، ولكنه بعد شيء من التفكير يستطيع أن يثبت للقضاء وأن يقف من الآلهة موقف المدافع عن نفسه المحتج لها ، لأنه لم يرد قتل أبيه ، ولم يقتله وهو يعلم أنه أبوه ، ولم يرد الزواج من أمه ولم يتزوج منها وهو يعلم أنها أمه . فإن كان في هذا كله إثم فليس هو المسئول عن هذا الإثم ، وإنما يسأل عنه القضاء الذي دبره والآلهة الذين ضللوا أوديب حتى تورط فيه على كثرة ما حاول تجنبه والتخلص منه.

هو إذن بريء أمام نفسه ، ولا عليه أن يراه الناس بريئاً أو أن يتهموه ويحكموا عليه . على أن أوديب لا يكتفي بذلك وإنما يريد أن يقنع القضاء والآلهة أنفسهم ببراءته ، وهو يبلغ من ذلك ما يريد ؛ فقد رضي الآلهة عنه آخر الأمر فآووه إلى هذه الضاحية من ضواحي أثينا ، وألقوا عليه السكينة ، وأشاعوا في نفسه الطمأنينة والأمن ، وجعلوا جثته مصدر بركة للبلد الذي تدفن فيه . وهم قد عاقبوا مدينة ثيبا فأثاروا فيها الفتنة بين الأخوين الملكين ، وحرموها هذه البركة المتصلة بشخص أوديب حين قضوا أن يموت غريباً وأن يدفن في بلد غريب .

وإذن فقد انتهت حرية الإنسان إلى شيء من الفوز . لم تستطع أن تجنب صاحبها المحنة ولا أن تنقذه من الشر في هذه الحياة ، ولكنها قد صفّت نفسه وطهرت قلبه واستخلصته من الآثام كما يستخلص المعدن النقي مما يحيط به من الخبث . فليست هذه المحنة إذن إلا تجربة لحرية الإنسان ، ووسيلة إلى تصفية نفسه وتنقية جوهره إن استطاع أن يثبت للآلام وينفذ من الخطوب .

إلى هذا كله أراد سوفوكل حين كتب قصتيه اللتين صوّر في إحداهما محنة أوديب ملكاً ، وفي أخراهما نجاة أوديب منفياً بائساً طريداً . ويجب أن نعترف بأن الذين أرادوا أن يقلدوا سوفوكل لم يبلغوا مما أرادوا شيئاً ذا خطر ، لا أستثني منهم إلا المعاصرين من الكتّاب الفرنسيين .

فالكاتب الشاعر الفيلسوف سينيك لم يضف إلى ما ابتكر سوفوكل شيئاً ، ولعله أضاع منه أشياء . وإذا كان لقصته شيء من جمال فأكبر الظن أنه إنما يأتيها من روعة الفصاحة اللاتينية ومن بعض الخواطر الفلسفية العابرة .

أما كورني فقد كان مفتوناً بقصته ، ويظهر أن معاصريه منحوا قصته هذه غير قليـــل من الرضا والإعجاب ؛ ولكن كورني فيما أعتقد قد أفسد قصة أوديب إفساداً عظيماً . رأى أن يلائم بين القصة وبين ذوق البيئة التي كان يكتب لها ، وقد لاحظ أن تلك البيئة لم تكن تتصور قصة تمثيلية تخلو من الحب ، ومن الحب الذي يكون له في المأساة نفسها أثر خطير . وليس في قصة سوفوكل حب أو شيء يشبه الحب ، فاضطر كورني إلى أن يحدث حبّاً ذا خطر ، واضطر من أجل ذلك إلى أن ينشىء للايوس بنتاً تكبر أوديب سنّاً ، وأن ينشىء بين هذه الفتـاة وبين ثيسيوس *Thésée* ملك أثينا حبّاً ، وأن ينشىء بين هذه الفتاة وبين أوديب خصومة حول هذا الحب من جهـة وحول العرش من جهة أخرى . فلم تكن الفتاة تعرف أن أوديب أخوها ، وهي من أجل ذلك كانت تراه غاصباً لعرش أبيها . ولم يكن أوديب يعرف أن الفتاة أخته فكان يؤثر أن يزوج ملك أثينا من إحدى ابنتيه . وكانت چوكاست حـــائرة بين بناتها الثلاث وبين زوجها . والغريب أن كل هـذه الخصومات حول الحب والغيرة كانت تشغل الملك والملكة والحاشية والقصر

كله في نفس الوقت الذي كان الوباء يعصف فيه بالمدينة عصفاً شديداً ، ولا نشغل بالقصة نفسها إلا حين توشك الفصول أن تنتهي ، هنالك تثار العقدة ويعلم الملك ومن حوله أن الآلهة غضاب ، وأن هناك مجرماً يجب أن ينزل به العقاب ، ثم يستبين للملك أنه هو المجرم فلا يفقد صوابه ولا يأخذه الهول ، وإنما يتحدث إلى أخته في حبها لملك أثينا وفي زواجها من هذا الملك، ثم يعصف الندم بنفسه آخر الأمر حين تموت جوكاست فيفقأ عينيه . وقد لاحظ كورني كذلك أن البيئة التي كان يكتب لها كانت من الترف ورقة الشعور بحيث كان يسوءها أن يظهر أمامها أوديب دامي الوجه بعد أن فقأ عينيه ، فلم يُظهر الملك أمام النظارة وإنما قص آخرته وآخرة الملكة عليهم في شعر قد يكون جميلاً رائعاً ، ولكنه لا يغني عن الصورة الماثلة أمام النظارة شيئاً .

وقصة كورني بعد ذلك لا تضيف فكرة جديدة إلى القصة اليونانية . ولست أدري أمن الحق أن تسمى أوديب ، أم من الحق أن تسمي درسيه *Dircé* وهو اسم الفتاة التي اخترعها كورني والتي تدور عليها القصة وعلى حبها أكثر مما تدور على أوديب وعلى محنته . وقد نقد ڤولتير قصة سوفوكل نقداً مفصلاً مسرف التفصيل . قاسه بمقياس العصر الذي كان يعيش فيه ، فأظهر القصة اليونانية منحلة متهالكة لا قوام لها من منطق ولا من دقة ، ولا تكاد تظفر بحظ من إتقان . ثم عطف على قصة

كورني ، فلم يعفها من النقد اللاذع الشديد . ثم أذاع قصته هو ، فـــإذا هي شر من قصة كورني ، لم تضف إلى القصة اليونانية جديداً ، ولم تظفر من الجمال اللفظي بما ظفرت به قصة كورني العظيم. ويكفي أن نلاحظ أن ڤولتير قد وقع في نفس التخليط الذي وقع فيه كورني ، أراد أن ينشىء حبّاً في هذه المأساة ؛ لأن البيئة الفرنسية التي كان الأدباء يكتبون لها كانت تريد الحب في التمثيل . أراد أن ينشىء حبّاً إذن ، فلم يجعل للايوس بنتاً كما فعل كورني ، ولكنه استكشف لجوكاست عاشقاً قديماً هو فيلوكتيت *Philoctète* ، وقد عــاد فيلوكتيت إلى ثيبا ليعيش قريباً من عشيقته ، ولكنه يعلم أن زوجها قد قتــل فيستأنف حبه القديم ثورة جامحة ، إلى آخر هذا العبث الذي لا يزن شيئاً بالقياس إلى جد الشاعر اليوناني العظيم . على أن من الحق أن نعتذر عن ڤولتير ؛ فقــد كان في التاسعة عشرة من عمره حين أنشأ هذه القصة . والشيء المحقق أن الشاعرين الفرنسيين قـــد عنيا بالبيئة أكثر مما عنيا بالموضوع ، فأرضيا قوماً كانوا يحبون أن يلهوا، ويكرهون أن يشقّوا على أنفسهم بالتأمل والتفكير فضلاً عن أن يشقّوا على أنفسهم بالنظر إلى المناظر التي تـؤذي شعور الغانيات المترفات .

ولأدع ما حاول الشعراء والكتاب بعد ڤولتير من تجديد قصة أوديب لأصل إلى هذه المحاولة الأخيرة التي أقـــدم عليها أندريه جيد وجان كوكتو بين الحربين . وهمــا قد أقدما على

هذه المحاولة في وقت واحد ، لم يسبق أحدهما صاحبه ، ولم يعلم أحدهما بمحاولة صاحبه إلا بعد أن أظهر كل منهما قصته . والفرق عظيم جداً بين القصتين. فأما جان كوكتو فيسرف في التجديد والابتكار إسرافاً شديداً لا يدعوه إليه تعمق الفكرة التي تدور القصة حولها ، وهي فكرة الصراع بين سلطان القضاء وحرية الإنسان ، وإنما يدعوه إليه الفن نفسه ، الفن الخالص الذي يروع النظارة ويبهرهم ويحرص على أن يسحر أعينهم وآذانهم وعقولهم أكثر مما يحرص على أن يدعوهم إلى التأمل والتعمق والتفكير . فجان كوكتو ليس متهالكاً على الجد ولا ممعناً فيه ، ولعله يبغض التقيد بأصول الفن المقررة ، فأحرى أن يبغض التقيد بقصة الشاعر اليوناني القديم . وهو من أجل ذلك يبتكر بطلاً جديداً هو أوديب ، ويحيطه بظروف توشك ألا تستبقي من اليونانية إلا الأسماء دون الحقائق ، وهو يعقّد قصته تعقيداً ويخالف فيها بين المناظر والفصول ، لا يتقيد بوحدة في الزمان ولا في المكان ولا في الحركة ، وإنما يكتفي بوحدة الموضوع . فقصته تبدأ منذ قتل لايوس ، وتنتهي بعد أن يفقأ أوديب عينيه . وإذن فهي تستغرق نحو عشرين سنة . تبدأ القصة حين تعرف المدينة مصرع الملك من جهة وحين يمتحنها أبو الهول بلُغْزه من جهة أخرى . ونحن نرى في الفصل الأول ظل الملك القتيل يظهر لبعض الجند يريد أن يرى الملكة والكاهن ليحذرهما من خطر عظيم . ونحن نرى الملكة والكاهن يصعدان إلى حيث كان يظهر ظل الملك القتيل ، فنرى ملكة شابة حلوة الدعابة خفيفة الروح ، خائفة

من ظل زوجها ، خائفة من الأحداث التي يمكن أن تلم بها ، محبة مع هذا كله للحياة ولذاتها ، لا تكره أن تداعب الكاهن الذي يداعبها أيضاً ، ولا تكره أن تلاعب الجندي الشاب الذي رأى ظل الملك القتيل ، وتظهر ميلاً شديداً إليه .

ونحن نرى في فصل آخر ما يكون من الصراع بين أوديب الفتى المغامر وبين أبي الهول . ثم ما يكون من انتصار الفتى . ونحن نرى في فصل ثالث زفاف جوكاست إلى الملك الشاب ونشهد أول الشر ؛ فالكاهن محنق على أوديب مشفق منه ، وليس كريون أقل منه حنقاً ولا إشفاقاً . ثم نرى نحن آخر الأمر ظهور الحقيقة ومصرع جوكاست ، ونرى أوديب وقد فقأ عينيه ونفى نفسه من الأرض وهمّ أن يخرج من القصر تقوده ابنته أنتيجون ، وإذا ظل أمه وزوجه جوكاست يظهر ، فيراه أوديب الضرير ولا يراه المبصرون من حوله ، ويتحدث فيسمعه أوديب ولا يسمعه الآخرون من حوله ، وإذا جوكاست تنبىء ابنها بأن الموت قد طهرها من الزوجية الآثمة ولم يبق لها إلا الأمومة البرة ، وهي قد أقبلت لتقود ابنها إلى منفاه وتعينه على احتمال الغربة .

فالقصة كما ترى رائعة بما فيها من اختلاف المناظر وبراعة الاختراع وحسن التحدث إلى الحس والشعور . ويظهر أن هذا كله يرضي الجمهور الضخم من النظارة الباريسيين . فأما التحدث إلى العقل وأما مواجهة المشكلات العليا وأما الصراع بين الدين

والحرية فأشياء لم يكن يحفل بها جان كوكتو ، ولم يكد يحفل بغيرها أندريه جيد ؛ فأندريه جيد متتبع لسوفوكل في مجرى قصته لا يخرج عن الخطة التي رسمهـــا الشاعر القديم منذ خمسة وعشرين قرناً . ولكن أوديب الذي ينشئه أندريه جيد رجل قد تم نضجه الفلسفي بأرقى معاني هذه الكلمة في القرن العشرين. يظهر في أول القصة مستجمعاً شخصيته كلها ، مستكملاً قوتـه كلها ، متحدياً للناس متحدياً للآلهة ، لا يؤمن إلا بنفسه ، يعلن إلى النظارة أنه رجل سعيد ، قد عمر أربعين سنة وملك عشرين عـاماً ، واكتسب سعادته اكتساباً لم يرثها عن أحد . ويوشك هذا الاعتداد بالنفس أن يدفعه إلى الغرور ، وهو من أجل ذلك يخادع نفسه ويزعم لها غير مخلص أن الآلهة قد أعانوه ، لا يريد بهذا الخداع إلا أن يتجنب الغرور الذي كثيراً ما ورط الناس في الشقاء .

فالفكرة الأساسية في قصة أندريه جيد هي اعتداد الإنسان بنفسه وثقته بحريته واعتماده على قدرته التي تمكنه من اقتحام المصاعب وتذليل العقاب . وهذا الاعتداد بالنفس يسوء الناس جميعـــاً ، فالجوقة التي تمثل الشعب ضيقة بهذا الغرور مشفقة منه على مصير المدينة ، ويدفعها إلى الإشفاق والخوف هذا الوباء الذي يصب على المدينة بلاء عظيماً . وقد أخذ الشعب الذي كان مفتوناً بالملك يتطير به ويهم في أن يكيد له بعض الكيد ليصرف إليه وحده غضب الآلهة من دون المدينة . والكاهن ساخط على

الملك لأنه لا يخلص دينه للإله بل لا يؤمن بالإله . وأبناء أوديب قد اختلفت أهواؤهم : فأما الشابان فقد تأثرا بأبيهما ، فهما لا يؤمنان بشيء ولا يرجوان لشيء وقاراً ، ولا يكرهان أن يصبوا إلى أختيهما وأن يتحدثا إليهما كما يتحدثان فيما بينهما بهذه الصبوة الآثمة . أما أنتيجون وجوكاست فتأثرتان بالكاهن إلى أبعد حد ، حتى إن الفتاة لتوشك أن تهب نفسها للإله . وأما كريون فناعم بالحياة في هذا القصر لا يحب أحداً ولا يكره أحداً ، وإنما يحب نفسه ويحب الحياة ويستمتع بما يتاح له من لذاتها . ويحافظ على التقاليد ما وسعته المحافظة . وعقدة القصة كلها هي الاختلاف بين أوديب الذي يعتد بنفسه حتى يبلغ الغرور وحتى يجحد الآلهة ، والكاهن الذي يريد أن يبسط سلطان الدين وأن يسيطر من طريق هذا السلطان على كل شيء وعلى كل إنسان وعلى نفس الملك خاصة . وليس الوباء الذي ألمّ بالمدينة وليس البحث عن مصدر هذا الوباء وليست استشارة الآلهة لتعرف هذا المصدر وليس استكشاف المجرم الذي قتل أباه وتزوج أمه — ليس هذا كله إلا مظاهر لهذا الصراع بين حرية الإنسان واعتداده بنفسه حتى يبلغ الغرور ، وبين سلطان الإله وتفوقه على غرور الإنسان .

فإذا تبينت الحقيقة وعرف أوديب أن سعادته لم تكن إلا غروراً ، وأن انتصاره على أبي الهول لم يكن إلا سراباً ، وأن ملكه الذي أسسه ونعم به لم يكن إلا امتحاناً — إذا عرف

أوديب هـــذا كله ورأى امرأته وأمه قد قتلت نفسها ورأى نفسه قد فقأ عينيه بيديه ، ظن الكاهن تيرسياس *Tirésias* أن الإله قد انتصر على غرور الإنسان ، وأن أوديب قــد تاب إلى رشده ، وأذعن لسلطان الدين . ولكن أوديب لم يخـــرج عن كبريائه ، ولم يستسلم للمحنة ، ولم يعترف بالهزيمة ، وإنمـا ثبت للخطب ، بل هو لم يفقأ عينيه إلا تحدياً لنفسه وللناس وللألم ، ومحاولة لبناء مجد جديد من طراز آخر معنوي غير هذا المجــد الزائل الذي كسبه حين قهر أبا الهول وأسس الملك . وهو حين ينفي نفسه من الأرض لا يفارق المدينة منهزماً ولا مخذولاً ، وإنما يفارقها يائساً . لم يقهر اليأس نفسه ، وإنمـــا رفعها فوق الناس وفوق أعراض الحياة . وهو ينصرف ساخراً من الشعب الذي أحبه ثم كرهه ثم أخذ يتملقه حين عرف أن بركة الآلهة متصلة بشخصه ، وينصرف ساخراً من كريون المحافظ الذي يرى الملك كل شيء ، وينصرف ساخراً من ابنيه اللذين لا يفكران في الحياة إلا على أنها وسيلة إلى المتاع ، وينصرف ساخراً من الكاهن الذي يعظه ويريد أن يحمله على الندم ؛ فهو لا يرى أنه قد فعل شيئاً يمكن أن يندم عليه .

هـــذه هي القصة التي وضعها أندريه جيد ، وهي كما ترى قريبة جداً من القصة اليونانية في موضوعها وفي غايتها ، بعيدة جداً من القصة في صورتها من ناحية وإن احتفظت بالجوقة وفي إتقانها للتفكير وتجنبها للتكلف الشعري الغنائي الذي قد يروق

ويعجب ، ولكنه لا يغني عن التفكير العقلي شيئاً .

ولست أدري أمخطىء أنا أم مصيب ، ولكني أعتقد أن هاتين القصتين : قصة سوفوكل وقصة أندريه جيد هما وحدهما اللتان تشهدان بأن محنة أوديب خليقة حقاً بأن تكون موضوعاً للتفكير الذي يغذو العقل ، والفن الذي يغذو القلب ، وبأن تكون من أجل ذلك صالحة لتفكير الفلاسفة وابتكار الأدباء على مر العصور واختلاف الأجيال .

وقد يكون ما تمتاز به قصة أندريه جيد من القصص الأخرى التي حاولت تجديد القصة اليونانية أنها لم تقف عند قصة أوديب ملكاً ولكنها ألمّت من قريب جداً بالقصة الثانية التي وضعها سوفوكل وهي قصة أوديب في كولونا .

وكان إلمامها بهذه القصة رائعاً حقاً ، لا أكاد أعرف شيئاً يشبهه في جمال الإيجاز ودقته وكفايته بحيث يستطيع قارىء هذه القصة أن يستوعب أمر أوديب كله في غير مشقة ولا جهد .

فقصة أوديب ملكاً تنتهي حين تموت جوكاست ويعاقب أوديب نفسه ويعلن أنه سيهاجر من وطنه . وقد رضي كريون عن هذه الهجرة ، وابتهج بها الشعب ، وسكت عنها ابنا أوديب الطامعان في الملك اللذان اتفقا قبل أن يمتحن أبوهما على أن

يكون الملك دولةً بينهما ، وأزمعت أنتيجون أن تصحب أباها في منفـــاه ، وقررت إسمين أن تلحق بهما بعد قليل . ولكن الكاهن يعلن فجاءة أن الآلهة قد أوحوا إليه انهم يصلون البركة بشخص أوديب ويكتبونها للأرض التي يدفن فيها بعد موته ، وإذا كل شيء يتغير إلا رأي أوديب ، فكريون يطلب إليه البقاء متملقاً مترضياً ، ولكن أوديب يسخر من إلحاح كريون وتملق الشعب وتوسل الكاهن ، ويمضي إلى منفـاه ساخراً من هؤلاء جميعاً .

وفي هذا الحوار القصير اليسير يوجز أندريه جيد خير ما في القصة اليونانية الثانية بحيث يخرج القارىء من قصة أندريه جيد وقد عرف من أمر أوديب كل شيء: عرف بدء القصة وخاتمتها، وعرف مكر الآلهة وغرور أوديب ، وعرف المحنة والمقاومة ، ثم عرف عفو الآلهة وانتصار الإنسان .

٤

والظاهر أن أندريه جيد قد فكر في قصة أوديب قبل أن يحاول إنشاءها بوقت طويل ؛ فهو معنى بأساطير اليونان يطيل التفكير فيها والحديث عنها ، ويلفته إليها بنوع خاص أنها مهما تكثر فيها الأعاجيب وخوارق العادات ومخـــالفة المألوف من قوانين الطبيعة تنتهي دائماً إلى شيء من المنطق يردها إلى العقل ، وإلى مـــا يحمل العقل على التروية والتفكير فيما يفسر حياة

الإنسان أو يتصل بمصيره أو بموقفه من القضاء .

نراه يكتب في ذلك بعيد انتهاء الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٩ .

ثم نراه ينشىء قصة أوديب نحو سنة ١٩٣٠ ، فإذا كانت الحرب العالمية الثانية وهاجر إلى إفريقية الشمالية نراه ينشىء قصته الثانية التي نترجمها مع قصة « أوديب » وهي قصة « ثيسيوس » . وهو ينبئنا في إهداء هذه القصة بأنه كان يفكر في كتابتها منذ زمن طويل . والواقع أنه يتحدث عن ثيسيوس وأسطورته في مقاله الذي أشرت إليه آنفاً والذي كتب سنة ١٩١٩ ، فهو إذن يفكر في هذه القصة الثانية قبل أن يكتبها بأكثر من عشرين سنة . والتفكير في هذا البطل الأثيني لا يستقيم عند أندريه جيد كما أنه لا يستقيم عند سوفوكل دون التفكير في أوديب . وحسبك أن تذكر أن أمر أوديب قد انتهى في القصة الثانية من قصتي سوفوكل بالتجاء البطل الممتحَن إلى أتيكا والتماسه الأمن والجوار عند الملك الأثيني ؛ فقد كان الشاعر اليوناني إذن يقرن أحد البطلين إلى صاحبه . وكذلك صنع أندريه جيد ، فسترى في آخر قصة ثيسيوس حديثاً بين البطلين حين التقيا يدور كله حول مصيرهما . والواقع أن هذين المصيرين يختلفان أشد الاختلاف ، ولكن كلاً منهما يدعو على ذلك إلى التفكير في الآخر . فقد أتيح الفوز للبطل الأثيني منذ نشأته الأولى ، وأتيح له على نحو متصل حتى كانت حياته كلها فوزاً لم

يعرف فيها الشقاء إلا قليلاً ، على حين بدأت حياة أوديب شقية مملوءة بالمحن ، ولم يكن ما أتيح له من السعادة إلا غروراً .

على أن آخرة الرجلين تختلف أشد الاختلاف : فأما أعظمهما حظاً من الشقاء وهو أوديب ، فقد مات راضياً عن نفسه وعن الآلهة ، مطمئناً إلى هذه السكينة التي أنزلت على قلبه . وأما أعظمهما حظاً من السعادة وهو ثيسيوس فقد أنفق آخر أيامه منفياً طريداً ، نفته الثورة عن وطنه ، ولم يجد عند الملك الذي استجار به مثل ما وجد عنده أوديب من الثقة والأمن ، وإنما وجد عنده المكر والغدر والموت . فلا غرابة إذن في أن يفكر أندريه جيد كما فكر سوفوكل في الرجلين معاً . ولا غرابة إذن في أن نجمع ترجمة القصتين في سفر واحد ، وإن لم يفعل ذلك أندريه جيد ؛ لأنه قد أنفق أكثر من عشر سنين بين إنشائه لهاتين القصتين .

على أني حين تحدثت إليه في الجمع بينهما في سفر واحد رضي عن ذلك كل الرضا . وقد عرفت منه في باريس أنه أشار على مترجمه الأمريكي بأن يصنع نفس هذا الصنيع ، لأن القصتين تصدران عن تفكير واحد وعن موقف واحد أمام مشكلات الحياة . ومع ذلك فبين القصتين اختلاف عظيم في الصورة الفنية : إحداهما تمثيلية كتبت للمسرح ، على حين أن الثانية نوع من المذكرات يقص فيها البطل الأثيني علينا حياته التي ملأتها المغامرة في ألوان من الدعابة الحلوة أحياناً والجد المر أحياناً أخرى .

ولا يشك قارىء القصتين في أن أولاهما قد كتبت حين كان أندريه جيد قوياً سعيداً موفوراً مستكملا شخصيته كأحسن ما يستكمل الكاتب شخصيته . كان في الستين من عمره ، أو لم يكن قد جاوز الستين إلا قليلاً ، كان سعيداً بين أهله وأصدقائه ، راضياً عن نفسه وراضياً حتى عن مكر الناس به وكيدهم له وانتقاض بعضهم عليه . أما القصة الثانية فقد كتبها بعد أن جاوز السبعين ، بعد أن فقد زوجه وكثيراً من أصدقائه ، وبعد أن خضع لألوان من الأزمات النفسية ، وبعد أن ذاق وطنه الهزيمة ، وذاقها هو أشد ما يكون ذوقها مرارة ، وكتبها منفياً عن وطنه لا يعرف متى يعود اليه ، بل لا يعرف أيتاح له أن يعود إليه . فهو مجاهد معاند متحدٍّ للأحداث والخطوب حين يكتب قصة « أوديب » ، وهو هادىء مطمئن حزين باسم مع ذلك للأحداث والخطوب ساخر منها ، مؤمن بنفسه واثق بوطنه ذائق حلاوة الصداقة حين يكتب قصة « ثيسيوس » .

ولذلك نرى أوديب يفرض نفسه على الأيام ويتحدى الآلهة ويعاند القضاء ، ويخرج من المحنة ظافراً يريد أن ينسى الماضي وألا يفكر إلا في المستقبل ، ونرى ثيسيوس قانعاً راضياً مطمئناً لا يفكر إلا في الماضي يستحضر منه اليسير والخطير ، ويجد اللذة في استحضار ما يستحضر يتحدث به إلينا أو إلى نفسه ، مستمتعاً بهذا الحديث قبل أن نستمتع به نحن ، لا يفكر في المستقبل ولا يريد أن يفكر فيه ؛ فهو لا ينتظر مستقبلاً لأن

حياته قد أشرفت على غايتها . وأنت تجد هذا الحزن المطمئن في الأسطر الأولى من القصة حين ينبئك بأنه كان يريد أن يقص حياته ليجد فيها ابنه موعظة وعبرة وتعليماً ، ولكن ابنه قد مات ، وهو يقص حياته مع ذلك ؛ لمن يقصها ؟ لنفسه أولاً ، ولمن شاء أن يقرأها من الناس بعد ذلك . فهو قد تقدمت به السن ، وسبقه أكثر أصدقائه وأحبائه إلى الموت ، فأصبح عشير نفسه ، لا يستطيع إن أراد أن يسرّي عنها إلا أن يقص عليها ما كان له في صباه وشبابه وكهولته من الأحداث ، وما مر به من الخطوب وما تعرّض له من المغامرات ، يحيا في وقت قصير حياته الطويلة ، ويجدد بالذكرى ما اختلف على نفسه من لذة وألم ، ومن أمن وخوف ، ومن أمل ويأس .

وهو ينتهي آخر الأمر بالموازنة بين حياته وحياة صديقه أوديب ، فيرى بعد التفكير الطويل أنه كان أسعد من صديقه حياة وأحسن حظّاً ؛ لأن أوديب قد انتهى إلى الزهد في الحياة والنفور منها والفزع إلى هذا العالم الداخلي يجد فيه الأمن والرضا على حين لقي هو الحياة كما عرضت على الأحياء ، ولعب بالأوراق التي أتاح القضاء للناس أن يلعبوا بها . يئس أوديب من الناس واستيقن آخر الأمر أنه لن يجد عندهم خيراً ولن يقدّم إليهم خيراً ، ووثق هو بالناس واستيقن آخر الأمر أن الحياة النافعة القيمة هي التي لا تنتهي إلى الجدب ، وإنما تنتهي وقد تركت من ورائها آثاراً يدوم انتفاع الناس بها وذكرهم لها وثناؤهم على صاحبها .

وقد امتازت هذه القصة بما سترى فيها من هذه الدعابة الحلوة والسخرية الهادئة ؛ فالبطل الأثيني يعرف الناس كما ينبغي أن يعرفوا : يعرف قوتهم ويعرف ضعفهم ، ويعرف أن هذه القوة كثيراً ما تقوم على الضعف نفسه . قيل له إنه ابن الملك وتحدث الناس بأنه ابن إله البحر ، فهو يعتز بهذين النسبين : يعتز بنسبه إلى أبيه ليملك أثينا ، ويعتز بنسبه إلى الآلهة ليملك قلوب الناس ويسحر عقولهم . وهو فيما بينه وبين نفسه يكاد يقطع بأنه ليس ابن هذا ولا ذاك ، وبأن أباه غير معروف؛ فقد يحدثنا بلوتارك بأن كثيراً من هؤلاء الأبطال كانوا يولدون لغير أب معروف فينتسبون إلى الآلهة ، ولا ينكر الناس من نسبهم شيئاً لحسن بلائهم ولما يحققون من عظائم الأمور .

ويحدثنا ثيسيوس بأنه قتل رجلاً كان يظن به السوء وقطع الطريق ، ثم تبين بعد ذلك أنه كان رجلاً خيراً نفاعاً للناس ، فكاد يندم على قتله ؛ ولكن الشعب حين عرف أنه هو قاتله ، لم يتردد في أن يقرر أنه كان مجرماً أثيماً . وكذلك تذعن الشعوب لملوكها وتسبق إلى التماس المعاذير لهم حين يخطئون .

وما أكثر ما نرى في هذه القصة أخلاق أندريه چيد نفسه ، فأبغض شيء إلى ثيسيوس أن يقيد نفسه بما يمنعه من العمل ومن التقدم إلى أمام ؛ فهو يحب ولكن بشرط ألا يمسكه الحب عند خليلة بعينها ، وهو يصادق ولكن بشرط ألا تقفه الصداقة عن

أن يمضي لما يريد ، وهو من أجل ذلك يتخلص من أريان *Ariane* بعد أن نجته من اللابيرانت *Labyrinthe* ويؤثر عليها أختها ، كما أنه لا يحفل بمشورة صديقه بيريتوس *Pirithous* ولا يقف عند رأيه ، وإنما يمضي لما أراد غير حافل بفقدان الصديق الذي أوشك أن يعوقه عما يرى فيه خيراً .

كل شيء في هذه القصة يصور حرص الملك على أن يحقق نفسه ويعتمد عليها ، ولا يعتمد إلا عليها ، ينفع الناس ولكن لا يعنيه أن يرضى الناس عنه أو يسخطوا ، بل هو لا يكره أن ينفعهم على رغمهم . وإذا كانت قصة أوديب تصور الشخصية القوية المجاهدة المعاندة التي لا تؤمن بشيء كما تؤمن بالحرية ، ولا تحرص على شيء كما تحرص على الحرية ، ولا تعرف الهزيمة ولا تذعن للخطوب ، فقصة ثيسيوس تصور الشخصية القوية التي جاهدت وعاندت وانتصرت على الأحداث والخطوب حتى إذا بلغت آخر الشوط نظرت إلى وراء بعد أن لم تكن تنظر إلا إلى أمام ، فرضيت عن نفسها وحمدت بلاءها ، وانتظرت الموت آمنة مطمئنة .

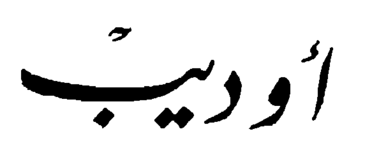
والقصتان تنتهيان إلى غاية واحدة ، ولكنهما في الوقت نفسه مختلفة : فقد مات أوديب راضياً ومات ثيسيوس راضياً أيضاً ، ولكن أحدهما وجد الرضا في العالم الداخلي الفلسفي ، على حين

وجد الآخر هذا الرضا في العالم الخارجي الإنساني . وما أعظم الفرق بين رضا مصدره اليأس من الناس ورضا مصدره الثقة بالناس !

طه حسين

●

آثرت في هذا الكتاب إيراد الأسماء اليونانية كما ينطقها ويرسمها الفرنسيون . ويرى القارىء في آخر الكتاب تبييناً لما قد يحتاج إلى تبيين من هذه الأسماء .



الفصل الاول

« لقد ملىء العالم بالمعجزات ، ولكن
لا أشد إعجازاً من الإنسان » .
(سوفوكل من حديث الجوقة في قصة أنتيجون)

أوديب :

هانذا أحضر وقد استجمعت شخصيتي كاملة في هذه اللحظة من لحظات الزمـان السرمدي ، أشبه شيء بشخص يظهر على مقدمة المسرح قائلاً :

أنا أوديب ، قد عمرت أربعين سنة ، وملكت عشرين عاماً ، وبلغت بقوة ذراعي قمة السعادة . لقد كنت لقيطاً لا يُعْرَف له أصل ، ولا يحمل ما يثبت شخصيته ، وأنا الآن أسعد الناس بأني لست مديناً بشيء لإنسان . لم توهب لي السعادة ، وإنما أخذتها قسراً . وأنا من أجل ذلك عرضة للغرور . وقد أردت أن أتجنّبه ، فسألت نفسي ألم يكن في أمري أثر للقضاء والقدر؟ أعمد بهذا السؤال إلى أن أعصم نفسي من دُوار الكبرياء هـذا

الذي تزلّ له أقدام كثير من أبعد القـــادة صوتاً وأعظمهم امتيازاً ... هَلـُمّ ! هلمّ ! يا أوديب ! لا تغامر بنفسك في كلام طويل توشك ألا تحسن الخروج منه . قل في يسر مـا تريد أن تقول ، ولا تشع في ألفاظك هذا الورم الذي تحرص على أن تتقيه في حياتك . كل شيء يسير ، وكل شيء يأتي في إبّانــه . فكن يسيراً وكن صائباً كالسهم . إمض إلى غايتك في غير عوج ولا التواء ... وهذا يردّني إلى ما كنت أقول آنفاً . نعم ! إذا ظننت أحياناً أني صنيعة الآلهة، ومصدر ذلك رغبتي في التواضع والاعتدال ، وفي أن أرد إليهم فضل ما كتب لي من تفوق، فمن العسير ألا يتعرض مثلي للغرور والكبرياء . وسبيلي إلى القصد أن أزعم أن فوقي قوة مقدسة أخضع لها راضياً أو كارهاً . ومن ذا الذي لا يُذعن مطمئناً لقوة مقدسة ترقى به إلى حيث بلغت ! إن إلهاً يقودك يا أوديب ، وليس في الأرض اثنان يشبهانك . بذلك أحدّث نفسي في أيام الآحاد والأعياد ، فأمـا في سائر الأيام فإني لا أجد الوقت للتفكير فيه . وما أنا وهذا كله ؟ إني لسيء التفكير ، ليس حسن المنطق من خصائصي ، وإنمـا أنا أصدر دائماً عن الحَدْس . من النـــاس من يسأل نفسه في كل فرصة ، وفي كل موطن تزدحم فيه العربات : أيجب أن أتأخر ؟ أمن حقي أن أمضي إلى أمام ؟ أما أنا فأمضي في حياتي كأن إلهاً يرشدني إلى ما أريد .

(الجوقة في مقدمة المسرح وقد انقسمت قسمين، أحدهما عن يمين والآخر عن شمال) .

الجوقة (بقسميها) :

نحن الجوقة ، التي كُلِّفت في هذا المكان أن تمثل رأي أضخم عدد ممكن من الناس ، نعلن دهشنا وحزننا أمام هذه الشخصية الممعنة في إيمانها بنفسها . فهذا الشعور الذي يظهره أوديب لا يقبل من غيره إلا إذا ألقى من دونه حجاب .

وليس من شك في أن من الخير للإنسان أن يترضّى الآلهة . ولكن أقوم السبل إلى ذلك أن ينحاز إلى رجال الدين . وإن أوديب ليحسن إذا استشار تيرسياس ، فهو الذي يمسك إرادة الآلهة . إن أوديب ليظهر العناية بنا وهو يوشك أن يغضب الآلهة علينا ، ولعله أن يكون مصدر هذه الآلام التي تبهظنا الآن (في صوت خافت) سنشتري رضاهم ببعض الضحايا التي لا يرتفع ثمنها وببعض الصلوات التي يحسن توجيهها ، وسنباعد ما بيننا وبين ملكنا فنحوّل إليه وحده العقاب على هذه الكبرياء التي تستوجب العقاب .

جوقة اليمين (إلى أوديب) :

لا يشك أحد في أنك سعيد وإن كنت تسرف في إعلان هذه السعادة ، ولكننا نحن لسنا سعداء . نحن شعبك . أي أوديب نحن شعبك لسنا سعداء . وددنا لو نخفي هذا عليك ، ولكن هذه القصة لن تأخذ طريقها إلا إذا حدّثناك بنبأ مروع.

إن الطاعون ، ما دام يجب أن نسميه باسمه ، ما زال ماضياً في دفع المدينة إلى الحداد . وقد عوفيت منه أسرتك إلى الآن ، ولكن من الملائم ألا يغضي الملك عما يصيب أمته من الرزايا وإن لم يصبه منها طرف .

جوقة الشمال :

على أننا لا نكاد نشك في أن بين سعادتك وشقائنا صلة خفية ، بذلك تلمح لنا أحاديث تيرسياس . ومن الخير أن نتعرف جلية الأمر فيه . سينبئنا بذلك أبولون ، فأنت قد أرسلت الرجل الكريم كريون صهرك إلى معبد الإله ، وسيعود إلينا عما قليل إنا ننتظر في لهفة من جواب الوحي .

أوديب :

ها هوذا مقبلاً !

(يدخل كريون)

أوديب (إلى كريون) :

وإذن ؟

كريون :

أليس من الخير أن نتحدث منفردين ؟

أوديب :

لماذا ؟ إنك تعلم أني أزدري الرياء والخواطر المستورة فستقول إذن كل شيء أمام كل الناس . إلى ذلك أدعوك ، بل بذلك آمرك . من حق الشعب أن يعلم كما أعلم أنا كل ما من شأنه أن يدفع عنه الضر . على هذا النحو وحده يستطيع أن يعينني على دفع البلاء . ماذا قال الوحي ؟

كريون :

بالضبط هو ما كنت أخاف ، وهو أن في المملكة شيئاً قد شمله الفساد .

أوديب :

قف . ليس محضر الشعب كافياً . يجب أن تُدعى إلى هذا المكان أختك جوكاست وأبناؤنا الأربعة .

كريون :

إسمع لي ، إني أحمد لك دعاء جوكاست ؛ فأنت تعلم أن شعور الأسرة شديد السلطان على نفسي ، وهي مع ذلك تستطيع أن تشير علينا فتحسن المشورة . أما الفتية فيخيل إليّ أنهم أصغر سناً من أن يشاركوا في هذا الحديث .

أوديب :

ليست أنتيجون طفلة . أما إتيوكل وپولينيس فهما كما كنت في سنهما ، ليسا غبيين وفيهما جراءة وإقدام ، فمن الخير أن ندعوهما وأن نشغلهما ببعض الهم ، أما إسمين فلن تفهم شيئاً .

(تدخل جوكاست وأبناء أوديب الأربعة)

أوديب (إلى جوكاست) :

إن أخاك قادم من پيتو [1] . وقد أردت أن تكونوا جميعاً حولي؛ لنسمع جواب الإله . هلمَّ يا كريون، تحدَّث الآن : ماذا قال الوحي ؟

كريون :

قال إن الإله لن يحول غضبه عن ثيبا حتى يثأر للايوس .

أوديب :

يثأر له من ماذا ؟

كريون :

ألا تعلم أن الذي تخلفه في سرير أختي جوكاست وعلى العرش قد مات مقتولاً ؟

---

(١) بيتو : هو الاسم القديم لدلف أخذ من اسم الثعبان بيثون الذي قتله أبولون قريباً من المكان الذي أقيم فيه معبده .

أوديب :

أعلم ذلك ، ولكن ألم يعاقب الجرم ؟

كريون :

لم تستطع الشرطة أن تأخذه . بل يجب أن نعترف بأن البحث عنه لم يتصل .

أوديب (إلى جوكاست) **:**

لم تنبئيني .

جوكاست :

لقد كنت تقاطعني يا صديقي كلما حاولت أن أتحدّث إليك. وكنت تصيح : كلَّا لا تحدثيني عما مضى ، فلست أريد أن أعلم من أمره شيئاً . لقد بدأنا عصراً ذهبياً . كل شيء يتجدد ...

كريون :

وكانت كلمة العدل إذا نطق بها فمك تؤدي معنى العفو .

أوديب :

لو كنت أعرف الخنزير الذي ...

جوكاست :

هوّن عليك يا صديقي ! هـــذا تاريخ قديم . لا تـَعُدْ إلى ما مضى .

أوديب :

كلّا لن أهوّن على نفسي ، بـل أنا أريد أن أعلم من ذلك . أقسم بالجحيم لن أنتهي حتى أظفر بالمجرم . سألتمسه حيثما يكون وأقسم إنه لن يفوتني . كم مضى على ذلك من وقت ؟

جوكاست :

كنت أيّماً منذ ستة أشهر حين خلفت لايوس ، وقد مضى على ذلك عشرون عاماً .

أوديب :

عشرون عاماً في حياة سعيدة ...

تيرسياس :

... وهي أمام الإله كيوم واحد .

(وقد دخل تيرسياس مع أنتيجون وإسمين دون أن يلحظ . وهو ضرير قد اتخذ لباس الكهنة)

أوديب :

يا للآلهة ! إن هذا الرجل لثقيل ! يقحم نفسه دائماً في أمور الناس . من طلب إليك الحضور ؟

جوكاست (إلى أوديب) :

يا صديقي لا ينبغي أن تتحدث على هذا النحو أمام الصغار. فمن الخطأ أن ننقص من سلطان الرجل الذي اتخذناه لهم مربياً واستاذاً والذي يجب أن يرافقهم دائماً . (ملتفتة إلى تيرسياس) كنت تقول ...

تيرسياس :

لا أريد أن أسوء الملك .

أوديب :

لا يسوءني ما يقال ، بمقدار ما يسوءني ما تضمره النفوس ولا تقوله الألسنة . تكلم .

تيرسياس :

سنتحدث منفردين يا أوديب عن سعادتك ... عما تسميه السعادة . أما الآن فالأمر يعني شقاء الشعب . أي أوديب إن الشعب يألم ولا يمكن للملك أن يجهل هذا الألم . إن الإله ينشىء صلة خفية بين السعادة التي تتاح لقليل من الناس والشقاء الذي

يُفرض على أكثرهم . إن اسم الإله يتردد كثيراً على لسانـك يا أوديب . وما ينبغي أن ألومك في ذلك ، وإنما ألومك في أنك تتخذ من الإله مُقِرّاً لعملك لا قاضياً لك، وفي أنك لا تضطرب أمامه خوفاً .

أوديب :

لم أكن قط ما يسميه الناس هيّاباً .

تيرسياس :

كلما عظمت شجاعة الإنسان أمام النـاس اشتد رضا الإله حين يراه خائفاً أمامه مضطرباً من الخوف .

أوديب :

لو أني اضطربت أمام أبي الهول لما استطعت أن أجيبه ولا أن أصير ملكاً .

الجوقتان :

أي أوديب ، أي أوديب ! عبثاً تحاول . إنك لتعلم أن أحداً لا يستطيع أن يستأثر بالكلمة الأخيرة دون تيرسياس ، وإن كان ملكاً .

الجوقة الأولى :

لقد قهرت أبا الهول ، ولكن تذكر أنك أبيت فيما بعد ذلك أن تحفل بزجر الطير .

الجوقة الثانية :

ولمـــا كانت هذه تؤرّق نومك ، فقد دفعتنا إلى الإثم حين أذِنت لنا في صيدها على الرغم من تحريم تيرسياس لهذا الصيد .

الجوقتان :

لقد كنا نتخذ من الطير طعاماً شهياً ، ولكننا لم نلبث أن تبينا الخطيئة حين رأينا الإله الساخط يسلط الدود على زراعتنا.

الجوقة الأولى :

وإذا كنا قد أخذنا أنفسنا بالصوم في ذلك العام ، فإنما أردنا التكفير عن خطيئتنا .

الجوقة الثانية :

ولأننا لم نكن نجد ما نأكل .

الجوقتان :

ولذلك فنحن على إيثارنا طاعتك ننصح لك بالإصغاء إلى ما يقوله تيرسياس .

أوديب (إلى ابنيه) :

إن الشعب يؤثر دائمـــاً تفسير ما يعرض له من الأحداث

بالأسرار الغامضة على تفسيرها بأسبابها الطبيعية ، ليس إلى تغيير هذا من سبيل (إلى تيرسياس) هَلُمَّ ! امض في حديثك .

تيرسياس :

تستطيع شرطة الملك أن تبحث عن مجرم ، ولكن إلى أن تجده أرجو أن تأخذوا جميعاً أنفسكم بالندم ، فكلكم خاطىء أمام الإله ولن نستطيع أن نتصور إنساناً قد برىء من الخطايا . فليعكف كل منكم على نفسه ، وليحاسب ضميره ، وليندم على ما قدّمت يداه . وفي أثناء ذلك سنقدم من الضحايا ما يهدىء من غضب الإله الذي يمتحن المدينة بهذا البلاء . لقد جلّ عدد الموتى عن الإحصاء ، ويستطيع بولينيس الذي كان يسايرني آنفاً والذي رأى ما لم أكن أرى أن ينبئك بذلك .

بولينيس :

أجل يا أبتِ ! لقد رأينا غير بعيد من القصر جماعة من المطعونين قد دنسهم البراز والقيء وهم يتلوون من الألم ويعين بعضهم بعضاً على الموت ، وكان الجو من حولهم يضطرب بما يبعثون من حشرجة وأنين ، ومن زفرات ونظرات ...

كريون :

حسبك ! حسبك !...

(إسمين يأخذها الأغماء)

أوديب :

هذه الصبية يغشى عليها الآن .

إتيوكل (إلى پولينيس) :

ما كان لك أن تقص هذا كله أمام أختك .

أوديب (إلى جوكاست) :

أرجو أن تخرجي هؤلاء الصبية .

(يخرجون ومعهم تيرسياس)

لينصرف الشعب فإني أريد أن أخلو للتفكير .

(يبقى أوديب ومعه كريون)

كريون :

متناقض كغيرك من الذين يرسلون أنفسهم على سجاياها . مه ما نفع هذا القسم الذي أقسمته آنفاً ؟

أوديب :

أي قسم ؟

كريون :

أترى ؟ لقد أنسيته ! ولكن الشعب ، ولكن أبناءك لن

ينسوه ، وما زال تيرسياس قادراً على أن يذكّرك به . لقد أقسمت لتثأرن للملك .

أوديب :

هذا حق . لماذا لم يحاكم المجرم ؟

كريون :

لقد طويت القضية .

أوديب :

من الذي طواها ؟

كريون :

أنا الذي طواها أوّلاً حين كنت وصياً على العرش . فقد رأيت من الخطأ أن ألفت إليها الشعب وأن ألقي في روعه أن الملك يمكن أن يقتل كغيره من الناس .

أوديب :

نعم ! ولكنه يعلم ذلك الآن .

كريون :

ولم ترد جوكاست أن يجري التحقيق لأنها رأت في كثير من الحكمة أن أول عهدك بالملك لا ينبغي أن يشيع فيه الظلام .

أوديب :

لقد حرصت جوكاست دائماً على أن تحوط سعادتي . إنها كاملة ، جوكاست . أيّ زوج هي ! أيّ أمٍّ هي ! أما أنا فلم أعرف أمي قط وإني لأحب جوكاست حب البنوّة والزوجية معاً . قل لي . أكانت تحب زوجها الأول ؟

كريون :

أقل مما تحبك من غير شك .

أوديب :

قل لي أيضاً ... ألم يولد لهما الولد ؟

كريون :

هــــذه قصة أخرى . لست أدري أمن حقي أن أقصها عليك ...

أوديب :

لم يكن من حقك أن تشير إليها فأما وقد فعلت ، أما الآن فأريد أن أعلم .

كريون :

إذن فهاك القصة : لم يكونا يريدان الولد ، لأن الوحي ...

أوديب :

الوحي أيضاً ... ؟

كريون :

... تنبأ بأن لايوس سيموت مقتولاً بيد ابنه . ولكن في ليلة من ليالي الحب الذي لا حذر فيه ...

أوديب :

لقد فهمت عنك . ومـــاذا كان من أمر هذا الطفل الذي أنتجه الهُيام ؟

كريون :

كان غلاماً لم يكد يولد حتى دُفع إلى راع كُلّف هـذه المهمة الحزينة ، مهمة إلقائه على الجبل حيث التهمته الوحوش الضارية .

أوديب :

ألا يزال هذا الراعي حياً ؟

كريون :

إنك لتسرف علي في السؤال . أتريد نصيحتي ؟ لا تَـشْق نفسك بهذا . وعش سعيداً .

أوديب :

مع هذه الشوكة في وسادتي أخشى ألا يتاح لي النوم منذ الآن . على أنك قد سمعت أن الإله يطلب عقاب القاتل .

كريون :

أيها العزيز أوديب إن الوحي الذي يسيغه الشعب لا ينبغي أن يخيفنا نحن الحاكمين . ينبغي أن نتخذ منه وسيلة لتقوية السلطان، وأن نؤوله كما نشتهي . لقد أنبأنا بأن لايوس سيموت مقتولاً بيد ابنه ، فقد هلك هذا الابن ولم يمنع ذلك من قتل لايوس . ولو قد عاش لما أتيح لك أن ترقى إلى عرشه . فلا تشق نفسك بموته ولا تكلّفها العناء لتعلم كيف مات . إن كان بعض الناس قد قتله فإنما فعل ذلك من أجلك . لقد هيأ لك الفرصة ، فما ينبغي لك أن تعاقبه ، وإنما يجب عليك أن تحسن إليه .

أوديب :

ولكن ما عسى أن يقول تيرسياس .

كريون :

أتخافه ؟

أوديب :

لا أكاد أخافه ، ولكن الشعب يسمع له ، وربما أثار صوته في نفسي بعض الاضطراب . نعم ! جرس صوته كأنه يخرج من الجحيم . ها هوذا مقبلاً من جديد . إنه ليسعى دون أن يسمع خطوه . ماذا تريد يا تيرسياس ؟

(دخل تيرسياس)

تيرسياس :

أي أوديب ان الملكة تريد أن تتحدث اليك . انها تنتظرك في القصر .

(أوديب يبتعد . تيرسياس إلى كريون)

انما أردت أن أخلو اليك ، لقد سمعت كل ما قلتما .

كريون :

أكنت تتسمع ؟

تيرسياس :

لست في حاجة الى أن أتسمع لأسمع . اني أعرف ما يجول في النفس قبل أن أسمع صوت المتكلم . أي كريون ليس من الخير أن تطمئن أوديب .

كريون :

ماذا تريد أن تقول ؟

تيرسياس :

أريد أن أقول انه يسرف في الاطمئنان ، وان نفسه كالإناء المطبق لا سبيل الى أن يبلغها الخوف . وان سلطاني كله انما يأتي من خوف الإله . ان هذه السعادة المطمئنة آثمة . ان عليك أن تحدث فيها صدعاً .

كريون :

لماذا ؟

تيرسياس :

من هذا الصدع يصل الإله الى قلبه . ان پولينيوس واتيوكل يفلتان مني . ان شعوري بذلك يزداد من يوم الى يوم . ستنبئك بذلك چوكاست . انهما يتأثران أباهما ويريان ان من الممكن أن يتحررا من هذا السلطان الذي ينبغي أن يذعن له كل انسان . اني لا أتحدث اليك عن نفسي ، وانمـــا أتحدث اليك عن الإله الذي أمثله وعن چوكاست ، وعن أنتيجون هذه الفتاة النقية ، وعن الشعب آخر الأمر . عن هذا الشعب المروّع الذي يرى أن ما يلِمّ به من الكوارث انما هو عقاب له على ما يظهر ملكه من

الإلحاد . ثم كيف تستطيع أنتيجون أن تكبر أباً ، وكيف تستطيع جوكاست أن تحب زوجاً يتحول قلبه عن الإله الذي تؤثرانه جميعاً بالاجلال ! وأنت نفسك يا كريون يجب أن تفهم أن مما ينفع الناس جميعاً أن يذعن الملك لسلطان قوة قـاهرة يستطيعون أن يفزعوا اليها حتى منه هو .

(تدخل جوكاست)

جوكاست :

ان أوديب شديد الحزن لما قصصت عليه من نبأ . ان أنتيجون تريد أن تخلص للدين .

كريون :

تريد أن تكون كاهنة ؟

تيرسياس :

ليس في ذلك ما يدهش . ان هذه الفتاة العزيزة تريد أن تقوّم بذلك ما في فجور أبيها من عوج .

جوكاست :

لقد أفضت اليّ بهذه النية التي يجب أن تظل سرّاً ، والتي لم يظهر عليها أخواها بعد .

كريون :

آه ! يا للفتاة البائسة !

تيرسياس :

بائسة لماذا؟ ستجد عند الإله سعادة أوثق من سعادة أوديب: نعيماً مقدساً قوامه الخضوع لا الكبرياء .

كريون :

أقدر كذلك أن شقاء الشعب قد أثر في نفسها .

چوكاست :

انها تلح عليّ في أن أدعها تعنى بالمرضى ، وقد أبيت عليها ذلك؛ لأنه ليس من شئون الأميرات . هنالك قالت لي: فلأصلّ من أجلهم ولأضرع الى الاله في أمرهم ، وربمـــا ضرعت اليه في أمرٍ . ثم قطع البكاء صوتها فلم تُتمّ .

تيرسياس :

في أمر شخص آخر أشد منهم مرضاً .

كريون :

أكانت تفكر في أبيها ؟

تيرسياس :

من غير شك . كيف تلقّى أوديب هذا النبأ ؟

جوكاست :

مغضباً محزوناً أول الأمر ، ثم صائحاً لأنه يعرف في هذا صنع تيرسياس .

تيرسياس :

لست الا أداة الاله ، وما دام الاله يتخذني أداة لانفاذ أمره فلن يقف عملي عند هذا الحد .

جوكاست :

ما أعظم حظ هذا الزوج الحبيب اليّ من الثبات والفضيلة والشجاعة ! ان الواجب يفرض علينا يا تيرسياس ان نرده الى طاعة الاله .

تيرسياس :

يجب على كريون ان يعينني. يجب عليه ان يزعزع ثقة الملك بنفسه فيُعِدّهُ بذلك لحسن الاستماع لي .

كريون :

سأحاول ، ولكني لست واثقاً بالنجح فإن أوديب لا يلقي السمع الى من يثقل عليه .

تيرسياس :

سيهديك الاله كما يهديني الى الوسيلة التي تمس بها قلبه .

كريون :

لم يُعْنَ الإله كثيراً بهدايتي قط .

تيرسياس :

انه لا يحسن العناية الا بهداية العميان .

چوكاست :

اني اعتمد عليك يا تيرسياس، فمن طريقك يأتينا العلم بإرادة الاله القدير .

الفصل الثاني

« أي أوديب أيها الذي ولد في غير
احتياط وكان السكر له أباً » .

(أوريبيد : الفنيقيات)

(يتقدم أوديب وكريون وهما يمضيان في حديث كانا قد بدآه)

كريون :

... لو لم نكن متباينين الى هذا الحد لما وجد أحد منا هذه المتعة حين يفهم عن صاحبه : واني أيهـــا الصهر العزيز لأحب حديثك ؛ لأنك تفتح لي آفاقاً لم أكن لأهتدي اليهـــا وحدي . فلك الابتـكار والتجديد . أما أنا فيقيدني الماضي ، وأنا من أجل ذلك أحترم التقاليد والعـــادات والقوانين المقررة . ولكن ألا ترى ان من الخير للدولة ان يمثل هذا كله ، وأني أحقق التوازن المفيد بـــإزاء عقلك المجدد ، فأحول بينك وبين الاندفاع او أهدّىء من مغامراتك الجريئة التي توشك ان تحطم نظام الجماعة اذا لم تؤخذ بشيء من القصد يأتيهـــا من هذا السكون ومن هذا التشبث بالقديم ...

أوديب (في شيء من الذهول) :

هذا ممكن .

كريون :

ان شعور الأسرة شديد السلطان على نفسي ، وأنت من هذه الأسرة ، وأمر أبنائك يعنيني كأمر أبنائي فأذَنْ لي في ان أجد شيئاً من القلق على صحة إسمين ، فهي عصبية ، وقد لاحظت ما أصابها أمس من الإغماء حين سمعت حديث أخيها . . .

أوديب :

ان هذا الإغماء لم يطل .

كريون :

ومع ذلك فيجب ان نُعنىَ بها فنحملها على شيء من الرياضة . . وكذلك چوكاست يخيَّل إليّ أنها لا تستمتع بالصحة الكاملة منذ أيام ؛ فهي قلقة لما يصيب الشعب من شقاء ، فمن الحق عليك ان تحاول تسليتها .

أوديب :

حَسَنْ ، حَسَنْ !

كريون :

وسأحدثك عن ابنيك حين يتاح لنا شيء من فراغ .

فتيرسياس أستاذ كيِّس، ولكنهما لا يظهران حسن الاستماع له . قد ورثا عنك شيئاً من العناد لا أُحقه ، فهما ثائران . هــل قرأ عليك إتيوكل خواطره التي صوَّر فيها بلاء العصر ؟

أوديب :

صوَّر فيها الطاعون ؟

كريون :

كلا ... بلاء العصر مع عنوان آخر هو قلقنا . وهو بالطبــع يقصد الى قلق عقليٍّ ممتاز . ان هذا الفتى لغريب حقاً . وليس پولينيس أقل منه جمالاً وقوة وذكاء . إنهما يشبهانك من غــير شك حين كنت في سنهما . ولعلك ترى نفسك فيهما .

أوديب :

أحياناً .

كريون :

أنتم من طائفة القلقين ، ولكنهما على الأقل يريان ما ضربت لهما من مثل . أمــــا أنت فقد كنت ترى نفسك غريباً عند پوليب ... أليس هذا هو الذي حملك على مغادرة قصره ؟ ألم تكن تجد الرضا عنده ؟

أوديب :

كنت أجد عنده كل ما أحب ، ولكني أكره ان أدلــل .

وكنت أعتقد في ذلك الوقت اني ابن پوليب . ثم أقبـــل الى القصر ذات يوم كاهن كان يتحدث الى الناس بأمر مستقبلهم ، وكان كل واحد يريد ان يسأله عما يضمر له الغيب . فلما جاءت نوبتي امتُقع لونه وأبى ان ينبئني بأمري أمام الناس ، ثم انفرد بي وأنبأني بأنه قد كتب عليّ ان أقتل أبي . ضحكت أول الأمر لهذه النبوءة ، ولكني رأيته يلحّ ويؤكد ، فلم أرَ بأساً بشيء من الاحتياط ، وكان أول ذلك ان أصارح پوليب بالأمر ، وان أنبئه بأني فراراً من هذه النبوءة السيئة سأفارقه الى آخر الدهر مهما يكلفني ذلك من مشقة ، فقد كنت أحبه . هناك أنبأني ليردّ الطمأنينة الى قلبي بأني لست ابنه ، وانما تبناني ، فما ينبغي إذن ان أخاف ان تتحقق هذه النبوءة فيما يتصل به . ولم يستطع ان يبيّن لي عن أبي شيئاً ، وانما حدثني بأن راعياً من رُعاته وجدني في الجبل وقد علقت كالثمرة من إحدى رجليّ الى غصن دانٍ لبعض الشجيرات (وهذا هو الذي جعلني أعرج قليلاً) وجدني عارياً معرضاً للريح والمطر كما يُطـرّح الطفل الذي يُنتجه الحب الآثم ، والذي يراد التخلص منه لأنه جاء على غير انتظار ليفسد على المحبين أمرهما ...

كريون :

طفل لِغيَّة . لا بد ان يكون ذلك قد آذاك .

أوديب :

كلا ! لم يؤذني . ولعل ممـــا يسرني ان أعرف اني لم أولد

لرشدة ؛ فقد كنت أتكلف كثيراً من الجهد لأقلد پوليب حين كنت أعتقد اني ابنه . وكنت أقول لنفسي أي شيء فيّ لم أرثه عن آبائي . وكنت أسمع لدروس الماضي ، وأنتظر من أمس وحده إقرار ما عملت وإملاء ما ينبغي ان أعمل . ثم تنقطع الأسباب فجاءة ، واذا أنا قد نجمت من المجهول ، فليس لي ماضٍ وليس لي نموذج أحتذيه ، وليس لي شيء أعتمد عليه ، وانما يجب ان ابتكر كل شيء : ان ابتكر الوطن ، وان ابتكر الأجداد وان اخترع كل شيء واستكشف كل شيء . ليس هناك شخص يمكن ان أشبهه إلا ان أكون أنا هذا الشخص . وما الذي يعنيني إذن ان أكون من أبناء اليونان او من أبناء اللورين ؟ كيف تستطيع يا كريون وأنت المثقل بقيود الماضي الملائم للتقاليد الموروثة في كل شيء ، ان تقدِّر ما في هذه الحاجة الى ابتكار كل شيء من روعة وجمال . ان جهل الأبوين دعاء الى مضاء العزم .

كريون :

ولكن فيم تركت پوليب بعد ان ردّك الى الاطمئنان ؟ فقد كنت متبناه ولم يكن له وارث ، فكنت خليقاً ان ترقى بعده الى العرش .

أوديب :

لست أكره شيئاً كما أكره الاستئثار بما ليس لي فيه حق ،

ولا أريد ان انتفع بشيء إلا إذ اكتسبته بالعزم اكتساباً، وكنت أجد في نفسي فضائل كأنها كانت نائمة ، ولم أكن أطيق لها هذا الخمود . وكنت أشعر اني بهذه الحياة التي كنت أحياها في قصر پوليب راضياً ناعم البال إنما كنت أضيع ما كتب لي من حظ .

كريون :

من الطبيعي ان أرى غير ما ترى ؛ فلو قد كنت مجهول النسب لكان من الممكن ان أتكلّف من الخصال وأطلب من المزايا مثلك ما لم يقدّر لي من طريق الوراثة . ولكني أنا ابن ملك وأخو ملك لا استطيع إلا ان أكون محافظاً . لم أكن ملكاً ولكني كنت أحب ان استمتع بنعمة الملك في قصر لايوس ، كما أحب ان أنعم في قصرك بكل مزايا الملك دون ان أحمل ثقله او اتكلّف همومه .

أوديب :

انْعَمْ في سلام ! انْعَمْ في سلام يا كريون . لعل من الخير ان يكون أمثالي اشخاصاً نادرين . ولكني أرى الفتية يقبلون ، فلنستمع لهم دون ان يرونا .

(يتنحى أوديب وكريون وتدخل أنتيجون وبولينيس)

پولينيس :

لا سبيل الى التفكير الحر إلا اذا أزلنا هذه الأثناء التي تفرضها العبادة على العقل .

أنتيجون :

ان الاستسلام للشهوات تفرض عليه انثناءً أشدّ نكراً وتعطفه الى الشر . نعم ! لقد اتخذ عقلي هذا الثني الذي يضطره الى ألا يفكر الا تفكيراً مستقيماً . ومن المحقق ان كل اتجاه لشخصي إنما يدفعني الى ...

بولينيس :

أتِمّي .

أنتيجون :

... يدفعني الى الإله !

بولينيس :

لماذا لم تتمي حديثك أول الأمر ؟

أنتيجون :

لأني أعلم انك لا تؤمن بالإله .

بولينيس :

الإله إنما هو في حقيقة الأمر شيء تضعينه عند آخر تفكيرك . أتؤمنين به حقاً ؟

أنتيجون :

بكل قلبي وبكل عقلي . ولولا اني أتحدث اليك لقلت بكل نفسي ، ولكنك لا تؤمن بالنفس أيضاً .

بولينيس :

لعلك تنتهين الى ان تحمليني على الإيمان بنفسك ... ولكن هذا الإله الذي تذكرينه أيوجد خارج عقلك ؟

أنتيجون :

نعم ! ما دام يجذبني اليه .

بولينيس :

إنما هو انعكاس بسيط لما في نفسك من الفضائل !

أنتيجون :

بل أنا التي أعكس بعض ما فيه من خير ، فكل فضيلة إنما تصدر عنه هو .

بولينيس :

أي إنتيجون: اسمعي لي ... ولا يأخذك الخجل من سؤالي.

أنتيجون :

اني أخجل مقدماً ، ولكن سل مع ذلك .

پولينيس :

أمن المحرَّم ان يتزوج المرء أخته ؟

أنتيجون :

نعم لا شك في ذلك . انه محرَّم أمام الناس وأمام الإله . لِمَ تسألني هذا السؤال ؟

پولينيس :

لأني لو استطعت ان اتخذك لي زوجاً لأسلمتك قيادي حتى تبلغيني إلهك هذا .

أنتيجون :

كيف تقترف الشر وترجو ان تصل به الى الخير ؟

پولينيس :

الخير والشر ... لا يردّد فمك إلا هاتين الكلمتين .

أنتيجون :

لا تنفتح شفتاي عن كلمة إلا اذا كان مصدرها قلبي .

(كريون وأوديب قد استخفيا اثناء هذا المنظر وسيظلان مستخفيين اثناء المناظر التالية)

كريون (الى أوديب) :

كلا انك لتعلم اني لا استطيع ان أقبل الزواج بين المحارم .

أوديب :

صـه !

(يتنحى بولينيس وأنتيجون ويدخل إتيوكل وإسمين)

إسمين :

ما أندر لقاءك منفرداً ! انك دائماً في صحبة أخيك . كيف تستطيع ان توافقه دائماً ؟

إتيوكل :

أليس طبيعياً ان يفهم الأخ أخاه اكثر مما يفهمه الأجنبي ؟

إسمين :

ان بين أنتيجون وبيني اختلافاً عظيماً في الذوق ، حتى اننا لنختصم في غير انقطاع ، فهي تلومني في كل ما أحب وتزعم لي انه محظور ، حتى انتهى بي الأمر الى اني لا أجرؤ أمامها على الضحك او اللعب . وأنا أعلم انها أكبر مني سناً ، ولكني أكاد اعتقد انها لم تكن صبية قط .

إتيوكل :

بولينيس وأنا توءمان قد وُلدنا معاً ونشأنا معاً ، فكل شيء بيننا مشترك ، فأنا لا أذوق لذة ولا أجيل خاطراً حتى يجد على الفور مثل ما أجد ، فيزيده ذلك قوة وأيْداً .

إسمين :

لست واثقة بأن مما يسرني ان أجد لي ضريباً ، بل لست واثقة بأني لن أكرهه ان وجد ؛ فهناك اشياء لا تحسن فيها الشركة .

إتيوكل :

لم نواجه الى الآن شيئاً من هذه الأشياء .

إسمين :

لو ان أحدكما أحب ...

إتيوكل :

لعلنا ان نحب توءمين .

إسمين :

فإذا اتصل الأمر بالملك ؟

إتيوكل :

لقد اتفقنا على ان نتناوب العرش .

إسمين :

فإن لم تجدا توءمين .

(يضحكان)

إتيوكل :

سأدعك لأشاوره في ذلك .

(يخرج إتيوكل وتدخل أنتيجون)

أنتيجون :

كيف تضحكين والشعب في حداد ؟

إسمين :

انك أنت لا تضحكين حتى حين يكون كل شيء من حولك سعيداً .

أنتيجون :

واحسرتاه ! ان في كل مكان من هذه الأرض شقاء لا يقاس اليه ما قد يوجد من فرح .

إسمين :

إنما الفرح في أعماق نفسي ، واني لأسمع في قلبي غنـاءً . ان البكاء على الأشقياء لا يعفيهم من الشقاء ، ولكنك أنت لا تميلين الا الى الذين يألمون . ولعل ابتهاج الناس من حولك ان يسوءك .

أنتيجون :

ان سعادة بعض الناس تقلقني يا إسمين .

إسمين :

بعض الناس ؟

أنتيجون :

سعادة أبي . وكلما ازداد حبي له اشتد خوفي من هذه السعادة التي يزعمها لنفسه . انه يهمل الإله . وليس للإنسان معتمَد غير الإله .

إسمين :

ان فرحي شيء مجنح .

(تخرجان)

كريون (إلى أوديب) :

أترى الى هؤلاء الفتية كيف يحسنون الحديث ! « ان فرحي شيء مجنح » ... جملة ينبغي ان تحفظ . أما انتيجون فظاهر حديثها لا يدل على شيء ، ولكن أتعلم انه في حقيقة الأمر شديد العمق؟ هو بالضبط ما كنت أريد ان أُشعرك به، ولكني لم أكن أعرف كيف أقول .

أوديب :

ماذا إذن ؟

كريون :

هو أني لا أرى سعادتك من المتانة بحيث تظن . ولكن لنستمع لابنيك .

(يدخل إتيوكل وبولينيس)

اتيوكل :

وفي الحق ما الذي نلتمس في الكتب ؟ انما نلتمس فيها الإذن بما نريد ان نعمل ، بل ان الذين يزعمون انهم يحبون النظام ويحترمون الأشيـاء المقررة ، هؤلاء الذين يسميهم تيرسياس أصحاب التفكير القويم ، انما يلتمسون في الكتب الإذن في ان يضايقوا ويظلموا ويخيفوا جيرانهم. انما يلتمسون أصولاً ونظريات تريح ضمائرهم وتضع الحق الى جانبهم .

بولينيس :

أمـا نحن أصحاب التفكير المعوج فإنما نلتمس في الكتب الإذن بأن نأتي من الأمر ما تنكره التقاليد ويأباه حسن الذوق وتحظره القوانين .

إتيوكل :

وبعبارة أخرى الموافقة على مخالفة المألوف .

بولينيس :

نعم ، شيء يشبه هذا .

إتيوكل :

فأنا الآن مثلاً أبحث في الكتب عن جمل تبيح لي ان اتخذ إسمين لي خليلة .

كريون (في صوت خافت الى أوديب) :

وقح .

بولينيس :

أختك ؟

إتيوكل :

أختنا ... ماذا تنكر من هذا ؟

بولينيس :

ان وجدت هذه الجملة فأظهرني عليها .

كريون :

وقحان .

أوديب (إلى كريون) :

انصرف .

(يخرج كريون)

إتيوكل :

إذا وجدت ماذا ؟

پولينيس :

هذا الإذن . على ان هناك إذناً أقل شمولاً وهو ان تستغني عن الإذن .

إتيوكل :

أما هذا الإذن فلم أنتظر ان أظفر به في الكتب !..

پولينيس :

لأنتفع به ؟

إتيوكل :

طبعاً ! واذا كنت الآن ألتمس الإذن فإنما ألتمسه لهـــا هي ...

پولينيس :

لإسمين ؟

إتيوكل :

نعم ، لإسمين ، أما أنت فلست في حاجة الى إذن .

بولينيس :

وإذا منحتك لطمة على هذا الوجه الوقح أظنك لا تستطيع ان تزدري هذه اللطمة .

إتيوكل :

حـاول ، جرب ، أنت غيران ! ألم نشترك الى الآن في كل شيء ! وإذن فقد أخطأت حين أفضيت اليك بهـذا الحديث . ومع ذلك أيها الأحمق فإني لم أقل هذا إلا لأغيظك .

بولينيس :

أقسم لي على ان لا ريبة بينك وبين إسمين .

إتيوكل :

الى الآن لا ريبة . إني أكظم .

بولينيس :

ما أراك تكظم كما أكظم .

إتيوكل :

لو لم أحدثك لما فكرت في هذا .

بولينيس :

أي اني لم أكن أعلم اني أفكر فيه ، فهناك أشياء نفكر فيها دون ان نشعر .

إتيوكل :

هذه مادة أحلامنا .

بولينيس :

ألم تسأل نفسك قط إلى أي حد يمكن ان يذهب الفكر ؟ يخيل إليّ انه أشبه شيء بالتنين الذي لا نكاد نعرف منه إلا جسمه وذنبه، ما ينسحب منه في الماضي: وحش غريب غامض أحس ان رأسه المنكر القبيح يساير ضميري وشعوري وحِسّي، يتحسس كل شيء ويشم كل شيء ويرسل في كل مكان رغبة شديدة في الاستطلاع المغري ، أما سائره فيتبعه كما يستطيع .

إتيوكل :

هذا التنين هو الذي أسميه بلاء العصر ، أجد في نفسي أسئلته التي لا تنقضي . انه يلتهمني بأسئلته .

بولينيس :

اني أفكر في التنين الذي قهره كدموس . يقال إننا نشأنا من أسنانه .

إتيوكل :

أتصدّق ذلك يا بولينيس ؟ يقـــال أيضاً ان ابنة كدموس الهالكة حملت في أحشائها الإله باكوس . في هـذا العصر الذي نعيش فيه والذي تقدمت فيه الحضارة ، ومنذ قتـل أبونا آخر ذرية أبي الهول لا تضطرب الآلهة والكائنات الغريبة في الهـواء ولا في الريف ، وإنما تضطرب في أنفسنا .

بولينيس :

كدموس [١] ، ليكوس [٢] ، أمفيون [٣] الذي أهدى الينا الكتابة نقيد بهـا خواطرنا ... ان الإنسانية لتظهر لي متقدمة السن ، واني لأرى هذا كله بعيد العهد بنـــا ! واني لأفكر في الوقت الذي لم يكن الانسان فيه قد اهتدى الى الكلام .

---

(١) كدموس : منشىء مدينة ثيبا يقـــال انه ابن ملك فينيقي عبر البحر باحثاً عن أخته التي اختطفها ذوس . فلما وصل الى مكان ثيبـــا وجد تنيناً خطراً فقتله ونثر أسنانه في الأرض فنشأ منها رجال مسلحون هم بناة المدينة وأصل أهلها .

(٢) ليكوس : ملك من ملوك الأساطير كان صديقاً لهرقل .

(٣) امفيون : بطل من أبطال اليونان ولد من صلة بين ذوس وأنتيوب وأهدى اليه أبولون ربابة من ذهب وقد ملك ثيبا وأقـــام أسوارها . كان يوقع على ربابته فتتسابق الأحجار الى أماكنها من هذه الأسوار .

إتيوكل :

ان تيرسياس يعلمنا ان الكلام هِبة من الآلهة للناس .

بولينيس :

ان إيماني بالآلهة لأقل من إيماني بالأبطال .

(يتقدم أوديب نحو ابنيه)

أوديب :

لقد أحسنتما القول ! اني لأعرف فيكما ابنيّ . اني لأسمعكما (لقد كنت أتسمع عليكما) فآسف لأني لم أتحدث اليكما كثيراً. ولكني أحب ان أقول لكما قبل كل شيء ... يا ابنيّ احترما أختيكما . ان ما يمسنا من قريب ليس بالغنيمة النافعة . ان من أراد ان يعظُم خليق ان ينظر الى بعيد . ثم لا تكثروا النظر الى وراء . قدّرا ان الانسانية ما زالت بعيدة جداً عن غايتها أبعد مما نظن وبينها وبين هذه الغاية آماد أطول مما بينها وبين عهدها الأول الذي لا نكاد نلحظه .

إتيوكل :

الغاية ... ما عسى ان تكون الغاية ؟

أوديب :

هي أمامنا مهما تكن. يخيَّل إليَّ اني أرى الأرض بعد وقت

طويل جداً وقد سكنها أناس أحرار ينظرون الى حضارتنا كما ننظر نحن الى الحضارة القديمة في أول عهدهـا برقيّها البطيء . واذا كنت قد قهرت أبا الهول فما ينبغي ان تستريحا . هذا التنين الذي كنت تتحدث عنه يا إتيوكل يشبه ذلك الوحش الذي كان ينتظرني على أبواب ثيبا حيث كان يجب ان أدخل ظافراً . ان ان تيرسياس ليثقل علينا بتصوفه وأخلاقه . لقد تعلمت هذا كله عند پوليب . ان تيرسياس لم يخترع شيئاً ، وهو لا يستطيع ان يسيغ الذين يبحثون ويخترعون . انه على مـا يزعم لنفسه من الاتصال بالآلهة ومن عـلم الغيب من طريق الوحي او من زجر الطير ، لم يكن هو الذي استطاع ان يحل اللغز ! لقد فهمت ، فهمت وحدي ان كلمة السرّ التي ينجو بها الانسان من أبي الهول هي : الانسان . لم يكن بد من بعض الشجاعة لِيُنْطَقَ بهذا اللفظ ، ولكني كنت قد أعددته قبـل ان أسمع اللغز . وقوتي إنما جاءت من اني لم أكن أقبل جواباً غير هذا مهما يكن السؤال الذي يلقى .

فقد ينبغي ان تفهما يا ابنيّ ان كل واحد منـا يلقى أول الشباب وحشاً قائماً يريد ان يأخذ عليه الطريق . وهذا الوحش يا ابنيّ يعرض على كل واحد منا سؤالاً خاصاً ، فاعلما ان هذه الأسئلة مهما تختلف فـإن جوابها واحد لا يتغير . نعم ! ليس هناك إلا جواب واحد لهذه الأسئلة كلهـا ، وهذا الجواب هو

الانسان ، وهذا الانسان الفرد بالقياس الى كل واحد منـــا هو شخصيته .

(هنا يدخل تيرسياس)

تيرسياس :

أي أوديب : هذه هي الكلمة الأخيرة لحكمتك ؟ أإلى هذا ينتهي علمك ؟

أوديب :

بل من هنـا يبدأ علمي ، وليست هذه الكلمة إلا الكلمة الأولى .

تيرسياس :

والكلمات التالية ما هي ؟

أوديب :

سيبحث عنها ابناي .

تيرسياس :

لن يجداها ، كما انك لم تجدها .

أوديب (لنفسه) :

إنه لأشد مِحَالاً من أبي الهول .

(الى ابنيه)

دعـــانا .

(يخرج إتيوكل وبوليذيس)

تيرسياس :

نعم ! إنك تطلب الى ابنيك ان ينصرفا حين لا تجد مـــا تقول لهما ، وحين يضطر علمك الى العجز . لا تستطيع ان تعلمهما الا الكبرياء . كل علم يأتي من الإنسان لا من الإله ، فهو باطــل .

أوديب :

لقد اعتقدت وقتاً طويلاً ان إلهاً كان يهديني الطريق .

تيرسياس :

إلهاً لم يكن شيئاً آخر غيرك ، أنت الذي ألـه نفسه .

أوديب :

إلهاً أفهمتني أنت اني استطيع ان استغني عنه .

تيرسياس :

عن هذا الإله الدعي تستطيع ان تستغني من غير شك لا عن الإله الحق ، هذا الذي تأبى ان تعرفه ، ولكنه يراقب خطاك

ويتتبع أشد خواطرك خفاء، الإله الذي يعرفك خيراً مما تعرف أنت نفسك .

أوديب :

من أين لك اني لا أعرف نفسي ؟

تيرسياس :

من انك ترى نفسك سعيداً .

أوديب :

ولم لا أرى نفسي سعيداً حين أكونه ؟

تيرسياس :

ان المريض الذي يرى نفسه صحيحاً ليس شديد الشهوة الى الشفاء .

أوديب :

أتريد ان تقنعني بأنني مريض ؟

تيرسياس :

مرضاً شديداً ، لأنه يزيد خطره انك لا تعلم . أي أوديب : انك تزعم الإفلات من الإله وتجهل نفسك ، وأريد ان أعلمك كيف ترى نفسك .

أوديب :

يخيَّل إلى مَنْ سمعك ان الأعمى منا هو أنا .

تيرسياس :

أي أوديب : ان كانت عينا وجهي مقفلتين ، فإنمـــا ذلك لتزداد عينا نفسي إبصاراً .

أوديب :

وبعيني نفسك هاتين ماذا ترى ؟

تيرسياس :

أرى بؤسك . ولكن أجبني منذ كم من الوقت تركت عبادة الإلـه ؟

أوديب :

منذ تركت السعي الى معابده .

تيرسياس :

طبعاً اذا لم نؤد فرائض العبـــادة خبت في نفوسنا جذوة الإيمان . ولكن لماذا لم تقرب المعابد حين كانت في نفسك بقية من إيمان ؟

أوديب :

لأن يَدَيَّ لم تكونا نقيتين .

تيرسياس :

أي جريمة دنستها ؟

أوديب :

دنستها جريمة قتـــل اقترفتها عن طريق الإله الذي كنت أريد ان أستشيره ، وأبي الهول الذي قهرته .

تيرسياس :

من ذا الذي قتلت ؟

أوديب :

رجل مجهول كان يعترض طريقي بعربته .

تيرسياس :

الطريق التي كانت تقودك الى الإله . فإن الطريق التي لقيت فيها أبا الهول طريق أخرى ، ولكنك كنت تعلم ان الإله لا يرجع جواباً على من دنس يديه .

أوديب :

هذا حق، ومن أجل ذلك عدلت عن استشارة الإله وأخذت الطريق التي قهرت فيها أبا الهول .

تيرسياس :

ماذا كنت تريد ان تطلب الى الإله ؟

أوديب :

أن ينبئني ابن مَن أنا ؟ ثم أزمعت فجاءة ان أجهل هذا النسب .

تيرسياس :

بعد اقتراف الجريمة !

أوديب :

تعلمت فجاءة كيف اتخذ من هذا الجهل قوة .

تيرسياس :

قد كنت أظن أنك طُلَعة شديد الرغبة دائماً في ان تعلم كل شيء ... ولكن قبل هذا التهاون المتعمَّد ... فسِّر لي يا أوديب ... لماذا كنت شديد الحرص على ان تعلم من الإله ما كنت تريد ان تسأل عنه ؟

أوديب :

لأن وحياً تنبأ بأني يجب ... أي تيرسياس : انك تثقل عليّ ، ولن أجيبك بعد الآن .

تيرسياس :

لقد تنبأ الوحي كذلك للايوس بأنه سيموت مقتولاً بيد ابنه . أي أوديب . أي أوديب أيها اللقيط ! أيها الملك الآثم ! ان جهلك لماضيك هو الذي يمنحك هذه الثقة . ان سعادتك عمياء . افتح عينيك على شقائك . لقد استرد الإله منك حقك في ان تكون سعيداً .

(يخرج تيرسياس)

أوديب :

أغرب . أغرب ! كأن السعادة كانت هي الشيء الذي كنت ابتغيه ، إنما هربت منها حين تركت بوليب قوي الساقين مطلق اليدين . من ذا الذي يستطيع ان يصور جمال الفجر وهو يلقي أشعته على البرناس[1] حين كنت أسعى في الندى نحو الإله ألتمس جوابه ، كنت لا أملك شيئاً إلا قوتي ، ولكني كنت غنياً بما كان في شخصيتي من استعداد ، وكنت أجهل نفسي . نعم لقد

---

(١) البرناس : جبل يوناني قريب من دلف يرمز به الى الشعر والفن لمكانه من معبد أبولون .

كان مصيري معلقاً بجواب الإله ، وكنت أذعن فرحـــاً لهذا المصير ... ولكن هنا شيئاً لا أصل الى فهمه . ومن الحق اني لم أفكر فيه كثيراً الى الآن . يجب ان يقف الانسان ليفكر ، وكنت في ذلك الوقت مدفوعاً الى العمــــل ... أمن الحق اني تحولت عن طريق الإله لأن يديّ لم تكونا نقيتين؟ لم أكن أحفل بذلك حينئذ . ويخيل إليّ الآن ان جريمتي هي التي وجهتني نحو أبي الهول . ماذا كنت أريد ان أطلب من الإله ؟ كنت أطلب جواباً . وقد كنت أشعر بأني كنت أنا نفسي جواباً لسؤال لم أكن أتبينه ، ثم عرفت انه سؤال أبي الهول . لقــــد قهرته أنا الذكي . ولكن منذ ذلك الوقت، ألم تزدد الأشياء كلها غموضاً من يوم الى يوم بالقياس إليّ ؟ منذ ذلك الوقت،منذ ذلك الوقت ... ماذا صنعت يا أوديب ؟ لقد نعمت بالمكافأة ونمت عشرين سنة ، ولكني الآن أخيراً أحس الوحش يتمطى في دخيلة نفسي ، ان مصيراً عظيماً ينتظرني مستخفياً في ثنايا التاريخ . أي أوديب لقد مضى وقت الطمأنينة . أفق من سعادتك .

الفصل الثالث

« إني أضرع إليكم في ألا تظنوا
بي ازدراء القوانين »

(سوفوكل : أوديب في كولونا)

أوديب (وقد أخذ بالمعطف الملكي لچوكاست) :

كلا ! أريد ان أعلم . لا تَتَنْسَلَّي كما ينسلّ الظل . فلن أُعفيك حتى أعلم . لن أخليك حتى أعلم كل ما عندك من الحقائق. ان هنا شيئاً غامضاً ملتبساً أريد ان أوضحه مهما يكن من شيء . وأجيبيني أولاً : أكنت تعلمين بموت لايوس حين دخلت ثيبا بعد ان أتيح لي قهر أبي الهول ؟

چوكاست :

كيف أعد بالعرش قاهر أبي الهول دون أعلم اني أتّيم !

أوديب :

فلم يكن يكفي للاستئثار بملك ثيبا ان يقهر أبو الهول ، بل لم يكن بد من قتل الملك .

چوكاست :

بماذا تريد ان تتهم نفسك .

أوديب :

كلا ! كلا . انك تتعجلين ، إنما أردت ان أقول لم يكن بد من أن يموت الملك .

چوكاست :

اسمع لي : لست أذكر جيداً حقيقة ما كان ولا كم مضى من الوقت بين موت الملك ووصولك الى ثيبا ، إنما يعرف ذلك حق المعرفة كريون ، وهو يستطيع ان ينبئك بجليته .

أوديب :

ما الذي يعنيني من أمر كريون ؟ أتعلمين ماذا قال لي ؟ لقد قال لي ان من الحق عليّ ان أكافىء قاتل لايوس لا ان أعاقبه ، فلولا جريمته لما ارتقيت الى العرش . ولكن موت الملك أكنت تعلمينه ؟ قولي يا چوكاست .

چوكاست :

كيف تريد ان أذكر ذلك يا صديقي ؟ بماذا تريد ان تعذّب نفسك ؟ لست أعلم إلا شيئاً واحداً وهو اني لم أكد أراك حتى أردتك .

أوديب :

لم يكن بد من ان يخلو العرش والسرير من صاحبها قبل ان يشغلها شخص آخر . وقتل الملك وحده هو الذي أتاح لي الظفر بهما . ولكن أنت ألم تكوني تعلمين أنك حرة ؟

جوكاست :

يا صديقي يا صديقي لا تنبه الى شيء من هذا ؛ فإن أحداً من المؤرخين لم يلتفت إليه .

أوديب :

إذن فأنا أفهم كل شيء . لقد كنت تعرفين قاتل الملك .

جوكاست :

صــه .

أوديب :

القاتل هو أنا .

جوكاست :

اخفض صوتك .

أوديب :

لم أكن قد أزلت عن يدي دم القتيل حين كنت أسعى الى أبي الهول لأقهره .

جوكاست :

قــف .

أوديب :

لقد كان يريد ان يمنعني من التقدم . كانت عربته تعترض طريقي ، فلما خاصمته في ذلك ليفسح لي الطريق قتلته . هذا المجهول الذي لم يكن يحمل اشارة الملك لم يكن إلا . . .

جوكاست :

لماذا تريد ان تعلم ؟

أوديب :

أنا شديد الحاجة إلى ذلك .

جوكاست :

ألا تشفق على سعادتك ؟

أوديب :

لا أشفق على شيء . لا أريد سعادة تقوم على الجهل والخطأ. هذه السعادة تليق بالشعب ، أما أنا فلست في حاجة الى ان أكون سعيداً . لقد قضي الأمر وتمزق سحاب تلك الأحلام الساحرة . (تستطيع ان تأتي يا تيرسياس) .

(يدخل تيرسياس يقوده كريون) .

تيرسياس :

أأنت في حاجة إليّ ؟

أوديب :

لم يأت وقت الحاجة إليك بعدُ . أريد قبل ذلك ان أهبط الى قاعة الهوة . قل لي ، هذا الملك الذي قتلته... كلا ! لا تقل شيئاً . لقد فهمت كل شيء . لقد كنت ابنه .

كريون :

آه ! يا للعجب ! ماذا أسمع ؟.. أتكون أختي أمه ! أوديب هذا الذي كنت أحبه أيمكن ان يتخيل الإنسان أبشع من هذا ؟ ألا أعلم أيكون صهري أم ابن أختي ؟

أوديب :

ألا يعنيك إلا هذا ؟ لا تشغلني بصلات النسب هذه ، فلو ان ابنيّ كانا لي أخوين لازداد حبي لهما قوة .

كريون :

ائذن لي في ان أرى هذا الخلط بين ألوان الشعور مؤلماً . ومع ذلك فمن حقي عليك ان تحرمني ، ألست خالك ؟

أوديب :

يا لها من مكافأة بغيضة على حل اللغز ! ماذا ؟ أهذا هو اللغز الآخر الذي كان يستخفي وراء أبي الهول . وأنا الذي كان يهنىء نفسه بجهل أبويه . بفضل هذا الجهل تزوجت أمي . واحسرتاه ! واحسرتاه ! واحسرتاه ! وتزوجت معها ماضيّ كله : الآن أفهم لماذا نامت مروءتي . لقد كان المستقبل يدعوني عبثاً لأن جوكاست كانت تردّني الى وراء . أي جوكاست : لقد كنت تزعمين في جنون إلغاء ما لم يكن بد من وقوعه ، أنت التي كنت أحبها حب الزوج وكنت أحبها دون ان أعلم حب الابن ... لقد آن الوقت دعيني ! اني لأقطع ما بيني وبينك من صلة . أما أنتم يا بَنيّ يا رفاق غفلتي ، أيتها الحقائق الواقعة لما ثار في نفسي من رغبات : سأدخل من دونكم في المساء لأتم ما كتب لي من مصير .

تيرسياس :

أي أوديب يا ابن الخطأ والخطيئة لتولد من جديد . قد كنت في حاجة الى الألم ليتجدد شخصك . خذ بحظك من الندم، أقبل على الإله الذي ينتظرك . سيوضع عنك وزرك .

أوديب :

بأمر الله الذي رسم لي طريقي قبل ان أولد نصب الشرك لأوخذ فيه. فليس بد من إحدى اثنتين: فإما ان يكون الوحي قد كذب ، وإما ان يكون الهلاك قد قضي عليّ . لقد كنت مجبراً .

تيرسياس :

كنت مجبراً بحكم الإله الذي يستطيع وحده ان يصلح بينك وبين نفسك وان يكفر عنك خطيئتك . ستفكر في هذا . ولكن أليس من الخير ان ينبه الشعب . لقد وعدته أنت بعقاب المجرم كما أراد الإله ليرفع عنه الشر .

أوديب :

أنبىء من شئت . لا أريد ان يجهل أحد شيئاً . ادع ابنائي أيضاً . ولكن أنبئهم أنت . أنبىء الناس جميعاً بما لا أحسن أنا إنباءهم به . أنبئهم بهذه الجريمة التي لا أعرف كيف أسميها .

(يخرج تيرسياس)

چوكاست :

لماذا تذيع ما يمكن ان يظل بيننا مكتوماً؟ كان من الممكن ألا يتوهم أحد شيئاً . وما زال هذا ممكناً إلى الآن . لقد نسيت الجريمة . إنها لم تمنع ، بل إنها أتاحت سعادتك . لم يتغير شيء .

أوديب :

كيف تقولين لم يتغير شيء . لقد تغير كل شيء ، ولم يبق واحد كما كنت أفهمه من قبل . فقد كنت أولاً ابن ملك دون ان أعلم . ولم أكن في حاجة الى القتل لأملك . كان يكفي ان أنتظر .

چوكاست :

أراد الآلهة شيئاً غير هذا .

أوديب :

وإذن فما عملته لم أكن استطيع ان أتركه . نعم لقد كنت أعتقد ان إلهاً يهديني وكنت أستمد من هذا الاعتقاد الثقة بسعادتي ، ثم أهملت هذا الاعتقاد نفسه وجعلت أعتمد على نفسي . أما الآن فلست أعرف نفسي في أعمالي . هناك عمل مع ذلك صدر عني وأود لو أجحده ... لأن مظهره قد تغير . او لأن نظري إليه قد تغير على الأقل حتى أصبح كل شيء يبدو لي مختلفاً .

چوكاست :

لقد أضلك إله في ذلك الوقت .

أوديب :

إله ، تقولين ؟ لقد كنت أرى نفسي قوياً بحيث أستطيع ان أستغني حتى عن الإله . لقد أردت ان أتحول عنه حين اتجهت الى أبي الهول . لمـــاذا ؟ هذا هو الذي أفهمه الآن . لقد كنت راضياً بالخضوع للإله حين كان يقودني الى المجد ، لا حين يقودني الى الجريمة ، الى الجريمة التي أخفي عليّ بشاعتها ... يا لها خيانةً من الآلهة ملؤها الجبن ! إنهـا لخيانة لا تطاق ... ألا أزال الى الآن خاضعاً لها ؟ هل تنبأ الوحي بما يجب ان أصنع ؟ أيجب ان أستشيره أيضاً؟ بماذا عسى ان تنبئك الطير يا تيرسياس؟ وددت لو أفلت من الآلهة التي تحيط بي ! وددت لو أفلت من نفسي . ان في نفسي شيئـــاً يعذّبني . إنه يشبه البطولة . إنه يتجاوز طاقة الإنسان . وددت لو اخترع ألماً جديداً لا أدري ما هو . وددت لو أخترع حركة جنونية تدهشكم جميعاً . تدهشني أنا وتدهش الآلهة . هاتان العينان اللتان لم تحسنا تنبيهي لست ...

(يخرج أوديب)

چوكاست :

اتبعه يا كريون . لا تـَدَعْه لحظة .

(يخرج كريون)

جوكاست (وحدها) :

أيها التعس أوديب : ما حاجتك إلى المعرفة ؟ لقد عملت ما استطعت لأمنعك من تمزيق القناع الذي كان يحمي سعادتنا . لقد طردتني وهأنذى الآن عارية بشعة . كيف أستطيع ان أظهر أمام عينيك ، أمام أعين أبنائنا ، أمام أعين الشعب الذي أحس مقدمه ؟ وددت لو رجعت أدراجي ونقضت كل ما عقد، ونسيت سريرنا المخزي ، ولم أصبح أمام الموتى الذين ينتظرونني إلا زوج لايوس وحده ...

(تدخل الجوقتان وتخرج جوكاست)

الجوقتان (تتحاوران) :

أين تذهب الملكة ؟ — تستخفي بالطبع — أين ذهب أوديب؟ يستخفي أيضاً . إنه خجل . — ان يتزوج الرجل أمه ويولدها الولد ... كل هذا من شؤون الأسرة وهو لا يعنينا ، إنما يعني الآلهة الذين يسخطون عليه — وهناك قتل لايوس وقد اقترفه ابنه أوديب — وقد وعد أوديب ان يثأر له. يمكن ان يقال انه اضطر نفسه الى حرج شديد . يجب ان يثأر الثائر من نفسه ، وان يتخذ نفسه على أنه مقترف الجريمة — لم يكن بد لإرضاء الآلهة من سقوط ملك ، فقد كان شقاؤنا عظيماً — أليس من

الطبيعي ان يضحي الملك بنفسه في سبيل شعبه ؟ بلى ! إذا كان من شأن هذه التضحية ان تنقذنا من الشقاء .

(الجوقتان معاً)

أي أوديب الذي كان يرى نفسه سعيداً ويقترف في سريره أشد الآثام خزياً : ليتنا لم نعرفك . لقد أنقذتنا من أبي الهول ، هذا حق ، ولكن ازدراءك للآلهة يجر علينا آلاماً لا تحصى ولا يكافئها ما قدّمتَ إلينا من خير . كل نعيم يُنال على رغم الآلهة، فهو نعيم مغصوب يجب ان يُؤدى عنه الحساب الى الآلهة عاجلاً او آجلاً . لنعلنْ هذه الآراء جهرة (فإنا نرى تيرسياس مقبلاً) .

(يدخل تيرسياس ومعه ابناء أوديب)

تيرسياس :

يا بَنيّ : إنكم لتعلمون أين تجدون الملجأ إذا فقدتم حماية أبيكم . هاكم ما سيدفعكم الى الحياة دفعاً . وقد التزم أوديب بقسمه ان يثأر من قاتل لايوس .

إتيوكل :

ما أرى انه يستطيع ان يرى لنفسه الحق في عرش ثيبا .

پولينيس :

ما أرى انه يستطيع البقاء في المدينة .

أنتيجون :

لا تنطقا بهذه الألفاظ القاسية التي يسمعها الآلهة ويردّونها عليكما .

إتيوكل :

سنتبع سيرة أبينا .

پولينيس :

لن نحتاج نحن الى ان نقتله لنرث عنه العرش .

أنتيجون :

ان أبي لم يقترف جريمته عن عمد .

إتيوكل :

لن تكون لنا خطايا نحتاج الى ان نكفر عنها .

(يسمع صياح)

الجوقة :

ما هذا الصياح ؟

إسمين :

إني خائفة .

أنتيجون :

تعالي الى جانبي .

(يخرج كريون من القصر)

كريون :

إن بشاعة العقاب لأشنع من بشاعة الجريمة . لقد قضت أمكم چوكاست . لقد انتهت حياتها حينما كنت ألاحظ أوديب « هذا ما لم يكن لعينيّ ان ترياه » . كذلك قال أوديب حين عرفنا النبأ . أما أنا فقد رأيته . رأيت أختي البائسة معلقة . وبينما كنت أجدّ في إسعافها اندفع أوديب الى المعطف الملكي فانتزع منه مشابكه الذهبية ، ثم دفع بها في عينيه دفعاً عنيفاً، وإذا الدم والصديد يتفجران منهما حتى يصيبني رشاشهما، وإذا هما يسيلان على وجهه . وهذا الصياح الذي كنتم تسمعونه إنما هو صياحه ، صياح الروع أولاً ، ثم الألم بعد ذلك .

تيرسياس :

لم نعد نسمع هذا الصياح .

كريون :

لعله أغمي عليه .

الجوقة :

لا ، بل ها هوذا . إنه لمتردد الخطو .

أنتيجون (تترك إسمين وتسرع للقاء أوديب) :

أبت ...

أوديب :

هذه أنتيجون التي أمس الآن شعرها ؟ ابنتي وأختي في وقت واحد ...

أنتيجون :

لا تذكر هذا الخزي الى آخر الدهر . لا أريد ان أعرف إلا اني ابنتك .

أوديب :

أنت التي لم تكذبي قط . أنبئي هذا الذي لم يعد يرى : أين يكون تيرسياس .

أنتيجون :

هنا . أمامك يا أبت .

أوديب :

قريباً مني بحيث يسمع صوتي ؟

تيرسياس :

نعم اني أسمعك يا أوديب . أتريد ان تتحدث إليّ ؟

أوديب :

أهذا هو الذي كنت تريده يا تيرسياس ؟ كنت تحسدني على ضوئي ، فأردت ان تجرني الى ظلمتك ؟ إني مثلك أشاهد الآن الظلمة الإلهية . لقد عاقبت عينيّ اللتين لم تضيئا لي الطريق . لن تستطيع منذ الآن ان تستطيل عليّ بما يمنحك العمى من تفوق .

تيرسياس :

إذن فهي الكبرياء التي دفعتك الى ان تفقأ عينيك . لم يكن الإله ينتظر منك هذا الإثم الجديد ثمناً لجريمتك الأولى ، إنما كان ينتظر منك الندم ليس غير .

أوديب :

الآن وقد ثاب إليّ الهدوء وسكت عني الألم وفارقني السخط على نفسي ، أستطيع ان أجادلك يا تيرسياس . إني لمعجب بما تعرض عليّ من ندم . أنت الذي يزعم ان الآلهة يقودوننا واني

لم أكن أستطيع ان أفلت مما قدروا عليّ . لعل هذه التضحية التي فرضتها على نفسي كانت مقدّرة عليّ هي أيضاً بحيث لم أكن أستطيع ان أتجنبها . لا بأس ! لقد ضحيت بنفسي عن إرادة ورضا ، لقد بلغت من الرفعة منزلة لم أكن أستطيع ان أعدوها إلا إذا وثبت محارباً لنفسي .

كريون :

إني لسعيد أيها العزيز أوديب بأن ألمك محتمل على الأقل . فقد بقي عليّ ان أنبئك بشيء مؤلم . لن تستطيع البقاء في ثيبا بعد كل الذي كان وبعد ان علم الشعب بجريمتك .

الجوقة :

إننا نطلب ان يَنفُذ أمر الآلهة ، وان تعفينا من محضرك ومن آلامنا .

كريون :

ان إتيوكل وپولينيس لَيطمعان في العرش منذ الآن . وإذ كانا ما يزالان حديثين لا يستطيعان النهوض بأعباء الملك ، فسأستأنف الوصاية على العرش مرة أخرى .

تيرسياس :

ما أرى ان شيئاً يدهشك حين ترى ابنيك ينتفعان بما قدمت إليهما من قدوة .

أوديب :

سأترك لهما راضياً هذه المملكة التي لم يفتحاها ولم يستحقاها، ولكنهما لم ينتفعـــا من القدوة التي قدّمت لهما إلا باليسير الذي يتملق شهواتهما . لقد أخذا بالسهل وتجنبا الصعب العسير .

أنتيجون :

أي أبت : إني لأعلم انك حين تختار لا تـؤثر من الأمر إلا أنبله ، ومن أجل ذلك أزمعت ألا أفارقك .

تيرسياس :

لقد وعدت بأن تمنحي نفسك للإله ، فلن تستطيعي أن تتصرفي في أمرك كما تحبين .

أنتيجون :

كلا ! لن أخلف موعدي . إني حين أفلت منك يا تيرسياس سأظل وفية للإله . بل يخيل إليّ اني أخلص في خدمته حـين أتبع والدي أكثر مما أخلص فيها ان بقيت معك . لقد سمعتك تعلـّمني حقائق الإله الى اليوم ، ولكن حظي من التقوى سيعظم ويزداد حين أصغي لعقلي وقلبي . أي أبت : ضــع يدك على كتفي ، فلن يدركني ضعف ولا وهن . تستطيع ان تعتمد عليّ . سأزيل الشوك من طريقك . قل الى أين تريد ان تذهب ؟

أوديب :

لا أدري . سأذهب أمامي ... لا ألوي على شيء . لا وطن لي ولا أسرة ...

إسمين :

إني ليحزنني ان أراكما تذهبان على هذا النحو . سألبس ثياب الحداد ، وسأدرككما ممتطية جواداً .

تيرسياس :

قبل ان ينطلق أوديب اسمعوا جميعاً لما أوحى إليّ الآلهة . إنهم يَعِدون ان يمنحوا أعظم بركاتهم للأرض التي تستقر فيها جثته .

كريون :

حسن !.. أترى انك تحسن ان أقمت بيننا ؟ نستطيع ان نتفق .

أوديب :

لقد سبقت الكلمة يا كريون . ان نفسي قد فارقت ثيبا منذ الآن ، وقد تقطع كل ما بيني وبين الماضي من صلات . لست ملكاً ، لست شيئاً ، إنما أنا ابن سبيل لا اسم له ، قد نزل عن ثرائه وعن مجده . بل عن نفسه أيضاً .

الجوقة :

أقم معنا يا أوديب . سنُعنى بك . ستقرى... تذكّر انك أسديت الينا فيما مضى من الدهر عوارف كثيرة . لئن كانت جريمتك قد أحفظت علينا الآلهة ، لقد انتقمتَ لها من نفسك انتقاماً عظيماً . فكر في الأعزاء عليك من أبناء ثيبا . فكر في شعبك . ما الذي يعنيك من أمر الذين لا يعرفونك ؟

أوديب :

مهما يكونوا فإنهم من الناس . وإنه ليلذ لي ان أحمل إليهم السعادة ثمناً لما ألقى من ألم .

تيرسياس :

ما ينبغي ان تريد لهم السعادة ، وإنما ينبغي ان تريد لهم النجاة .

أوديب :

سأدعك تفسر هذا للشعب . وداعاً ! تعاليْ يا ابنتي . أنت الوحيدة بين أبنائي ، أريد ان أعرف نفسي فيك ، وأريد ان أكل نفسي إليك ، أي أنتيجون النقية : لن أسلم قيادي إلا إليك .


ثیسیوس

أهدي هذا السفر الأخير إلى

آن هورچون

في غير تـكلف
فبفضل ضيافتها الحلوة ورعايتها المتصلة وعنايتها الدائمة
استطعت ان أتمه
وأسجل هنا اعترافي بالجميل

لچاك هورچون

ولكل الذين أتاحوا لي أثناء هذا النفي الطويل
أن أعرف قيمة الصداقة وبنوع خاص

لچان أمروش

الذي أحسن تشجيعي على هذا الجهد . ولعلي
لم أكن بدونه أجد الميل إلى البدء فيه مع أني
أفكر في كتابه منذ وقت طويل .

١

لقد كنت أتمنى ان أقصّ حياتي على ابني هيپوليت[١] لأعظه وأعلمه، ولكن قد قضى . وسأقصّ حياتي مع ذلك . وقد كان مما لا سبيل اليه ، لو عاش هيپوليت ، ان أروي بعض حوادث الغرام التي عرضت لي . فقد كان يظهر غلوّاً شديداً في الحياء ، ولم أكن أجرؤ على ان أتحدث أمامه عما لقيت من الحب . على ان الحب لم يكن ذا خطر إلا في الشطر الأول من حيـــاتي . ولكنه علـّمني على الأقل ان أعرف نفسي بالقياس الى الوحوش المختلفة التي قهرتها . فقد كنت أقول لهيپوليت : « يجب قبـل كل شيء ان يعرف الانسان من هو ، ثم يحسن بعد ذلك ان نستحضر في شعورنا ونأخذ بأيدينا ما ترك لنـا من ميراث . وسواء أردت ذلك أم لم ترده ، فأنت الآن ، كما كنت أنا من قبلك ، ابن ملك . لا سبيل الى اتقـــاء ذلك . انه واقع . انه ملزم » . ولكن هيپوليت لم يكن يلقي الى ذلك سمعاً . كانت

---

(١) هيپوليت : ابن ثيسيوس من زوجه انتيوب ملكة الأمازون .

عنايته به أقل من عنايتي حين كنت في سنه ، وكان مثلي لا يحفل بأن يعرف من ذلك شيئاً . يا للأعوام الأولى التي نحياها في البراءة والنقاء ! نشأة غير مكترثة ! لقد كنت الريح وكنت الموج . وكنت نباتاً وكنت طائراً . لم أكن أقف عند نفسي ، وكان كل اتصال بيني وبين العالم الخارجي لا يعلمني حدود طاقتي بمقدار ما يوقظ فيّ من ميل الى اللذات . لقد مسحت بيدي الثمر وقشر الشجر الرخص ، والحصى الأملس على ساحل البحر ، وشعر الكلاب والخيل قبل ان ألمس النساء . لقد كنت أثب الى كل ما كان يقدم إليّ پان [1] ، او ذوس [2] ، او تيتيس [3] ، من جمال .

وذات يوم قال لي أبي ان الأمور لا تستطيع ان تمضي على هذا النحو . « لماذا » ؟ لأني بالطبع كنت ابنه وكان يجب ان أظهر نفسي كفئاً للعرش الذي سأرثه عنه ... على حين كنت

---

(١) پان : إله يوناني للمراعي والقطعان اخترع المزمار له قرن المعز وأرجله وفي يده محجن .

(٢) ذوس : أبو الآلهة وعظيمهم وملك الآلهة والناس ، اليه تصريف شؤون الكون كله بقوته القاهرة وحكمته الخفية وهو مع ذلك لا يفلت من سلطان القضاء .

(٣) تيتيس : إلهة من آلهة البحر تزوجت ملكاً يونانياً هو بيليه ، فولدت له آخيل أعظم أبطال اليونان خطراً .

أرى نفسي سعيداً بالجلوس عارياً على العشب الرخص او على الرملة الملتهبة . ومع ذلك لا أستطيع ان أخطّىء أبي ، فقد كان يحسن بإثارة عقلي خصماً لي . وأنا مدين لذلك بكل ما أتيح لي من قيمة فيا بعد ، بانقطاعي عن هذه الحياة المهملة مهما يكن هذا الإهمال لذيذاً رائقاً . لقد علّمني ان الانسان لن يظفر بشيء عظيم ولا بشيء قيم ولا باق إلا إذا بذل الجهد في سبيله .

وقد بذلت أول جهد مستجيباً لدعائه . كان ذلك حين كان يدعوني الى ان أرفع بعض الصخور لأبحث تحتها عن سلاح كان يزعم لي ان پوسيدون[1] خبأه . وكان يضحك حين كان يرى هذا التمرين يزيد قوتي نمواً واشتداداً . وهذا التمرين العضلي كان يصاحب تمريناً للإرادة . وبعد ان رفعت كثيراً من الصخور الثقال حول القصر باحثاً في غير طائل أخذت أحاول ان أنزع أحجار عتبة القصر ، هنالك وقفني وقال :

— إن السلاح أقل خطراً من الذراع التي تحمله . وإن الذراع أقل خطراً من الإرادة العاقلة التي توجهها . هاك السلاح . لم أرد

---

(١) بوسيدون : إله البحر وهو أخو ذوس وهو خالق الخيل وهو مجمع العواصف ومفرقها .

ان أدفعه إليك قبل ان تستحقه . وإني أجد عندك الآن الرغبة في اصطناعه ، وهذا الميل الى المجد الذي لن يتركك تصطنعه إلا في الأمور النبيلة ذات الخطر وفيما يسعد النـــاس . لقد انقضى عصر طفولتك، فكن رجلاً . تعلـَّم ان تبين للناس ما يمكن ان يكون وما يريد ان يكون واحد منهم. ان هناك أموراً جساماً يجب ان تتحقق . فحقق نفسك .

٢

كان أبي إيجيه[١] رجلاً كريماً ملائماً كل الملاءمة لما يجب أن يكون عليه الرجل من الخصال . وأكاد أتوهم في حقيقة الأمر أني لست ابنه إلا ظنا . قيل لي هذا ، وقيل لي كذلك إن الإله بوسيدون هو الذي ولدني . فإذا صح هذا فقد ورثت عن هذا الإله أخلاقي التي لا تثبت على شيء . فلم أستطع أن أثبت على حب امرأة . وكان إيجيه يمنعني من ذلك أحياناً . ولكني أحمد له وصايته ، وأحمد له كذلك أنه رد في أتـّيكا كثيراً من الاعتبار والتقدير إلى عبادة أفروديت[٢] ، ويحزنني أني دفعته إلى الموت بما اضطررت إليه من هذا النسيان الخطير حين أنسيت أن أرفع

---

(١) إيجيه : ملك أثينا وهو أبو ثيسيوس على ما ترى حول هذه الأبوة من كلام في القصة التي كتبها أندريه جيد وفي حياة العظماء التي كتبها بلوتارك .

(٢) افروديت : هي الزهرة أو فينوس باللاتينية ، وهي إلهة الجمال والحب نشأت من زبد البحر .

على السفينة التي عادت بي من أقريطش [1] شُرُعا بيضاً مكان شرعها السود ، كما كان قد تم الاتفاق بيننا على ذلك إذا عدت منتصراً من هذه المغامرة الخطرة . وليس الانسان قادراً على أن يفكر في كل شيء. وفي الحق أني سألت نفسي – وقلما أسألها – لا أستطيع أن أؤكد أني تركت ذلك عن نسيان؛ فقد كان إيجيه كما قلت يقوم عقبة بيني وبين الحب، ولا سيما بعد أن استكشفت له ميديه[2] وسيلة ترده الى الشباب حين رأته ورأى نفسه هرما يسرع إليه الفناء ، فكان يصدني بأهوائه عن أهوائي ، على حين أن طبيعة الأشياء تقتضي أن يتناوب الناس حظوظهم في هذه الحياة . ومهما يكن من شيء فقد علمت حين دخلت أثينا أنه لم يكد يرى الشرع السود حتى قذف بنفسه إلى البحر .

ومن الحقـــائق أني أديت الى الناس خدمات جليلة ، فقد طهرت الأرض من كثير من الطغاة وقطاع الطرق والوحوش ، وجبت طرقاً خطرة لم يكن المغامرون يحاولون سلوكها إلا

---

(١) اقريطش : جزيرة من جزر البحر الأبيض المتوسط لها مكانتها الممتازة في الحضارة الايجية التي سبقت حضارة اليونان .

(٢) ميديه : ساحره خطفها جازون من كولشيد – في القوقاز – فلما تركها أثارها الغيظ ، فذبحت بنيها ثم انتهت إلى أثينـــا فتزوجها ملكها ايجيه وهمت بأن تسم ابنه تيسيوس فـــلم تفلح وطردها الاثينيون .

خائفين ، وصفيت السماء حتى أصبح الناس أقل إحناء للرءوس وأقل خوفاً من المفاجآت ...

ويجب الاعتراف أن مظهر الريف في ذلك الوقت لم يكن يشعر بأمن أو طمأنينة ؛ فقد كانت تمتد بين القرى المتنائية مسافات من القفر تقطعها طرق مخوفة . وكانت هناك غابات كثاف وثنيات ضيقة بين الجبال. وكان أرصاد من قطاع الطرق قد استقروا في الأماكن المريبة ، وجعلوا يقتلون المسافرين وينهبون ما كانوا يحملون ، ولم يكونوا يخضعون لرقابة شرطة او حراس . وكان قطع الطريق يضاف إلى السطو والسرقة العنيفة وإلى اعتداء الحيوان المفترس وإلى هذه القوى المنكرة لعناصر الطبيعة الماكرة ، بحيث لم يكن الناس يتبينون حين يرون مغامراً أصابه مكروه: أكان ضحية لمكر الآلهة أم كان ضحية لعدوان الناس ؟ كما أنهم لم يكونوا يعلمون أكان هذا الوحش او ذاك كأبي الهول الذي قهره أوديب والجورجوني[1] التي قتلها بلليروفون[2] صنفاً

(١) جورجوني : وحوش غريبة مروعة مؤنثة وكن ثلاثاً يمسخن من ينظر إليهن حجراً .

(٢) بلليروفون : بطل من أبطال كورنت أحبته ملكة ارجوس ولم تجد عنده لحبها صدى . فزعمت لزوجها أنه أراد بها السوء . هنالك كلفه ملك أرجوس مغامرات كثيرة خطيرة خرج منها ظافراً .

من الناس أم صنفاً من الآلهة ؟ كل شيء لا يسهل فهمه كان يظن به أنه من عمل الآلهة ، وقد كان الدين مليئاً بالخوف حتى كان الناس يرون البطولة إثماً وفجوراً . وكان اول الانتصار الذي ظفر به الانسان وأعظمه خطراً هو انتصار الانسان على الآلهة .

ولم يكن سبيل إلى قهر العدو سواء أكان إنساناً أم إلـهاً إلا أن تظفر بسلاحه وتقهره بهذا السلاح . كذلك فعلت حين اغتصبت من بيريپتيس[1] سلاحـه ، وكان مارداً عاتيـاً بعيد الصيت يقيم في مدينة اپيدور[2] . وصعقة ذوس نفسها أؤكد أن وقتاً سيأتي يستطيع الناس فيه أن يسخروها لحاجاتهم كما استطاع برومثيوس[3] أن يختلس النار من الآلهة .

نعم ! هـذه هي الانتصارات الحـاسمة . أمـا بالقياس إلى النساء وهن مصدر قوتي وضعفي في وقت واحد ، فلم يتح لي انتصار حاسم قط ، وإنما احتجت دائماً إلى استئناف الجهاد .

---

(١) بيريبتيس : قاطع طريق مشهور وهو ابن ايفايستوس .

(٢) ابيدور : اسم لمدن ثلاث يونانية أشهرها في الجنوب الشرقي لليونان قريباً من أرجوس .

(٣) برومثيوس : مـارد سرق النار من الآلهة وأهداها إلى الناس فعلمهم الحضارة ، وعاقبه كبير الآلهة على ذلك فشده إلى صخرة في القوقاز وسلط عليه نسراً ينهش من كبده التي لا تـكاد تفنى حتى تتجدد وما زال كذلك حتى أنقذه هيرقل .

لم أكن أفلت من إحداهن إلا لأقع في حبائل غيرها . ولم أكن أظهر على إحداهن إلا بعد أن تظهر هي عليّ . لقد كان بيريتوس[١] محقاً حين كان يقول – وما أكثر ما كنا نتفق في الرأي – إنمـــا المهم هو ألا يدع الإنسان نفسه يصبح لعبة لإحداهن ، كما كان هيرقل[٢] بين ذراعي أمفال[٣] . ولما كنت لا أستطيع ولا أريد ان أمتنع على النساء ، فقـد كان يقول لي كلما رآني نهباً للحب « امض ولكن تحول » . أمـا تلك التي أرادت ان تحتاط لي فتكلفت ان تصـــل بينها وبيني بخيط أمسكته ، ولكنه لم يكن يمتد الى غـير مدى ، فهي التي ... ولكن الوقت لم يئن للتحدث عن هذه القصة ...

وكانت أنتيوب[٤] أقربهن الى امتـلاكي . كانت ملكة

---

(١) بيريتوس : صديق ثيسيوس ورفيقه في مغامراته الكثيرة ، هبط معه إلى دار الموتى لانقاذ برسيفونيه فلم يعد .

(٢) هيرقل : بطل اليونان الأكبر ، ولد من صلة بين كبير الآلهـــة وبين ألكين من أهل ثيبا وعرف بمغامراته الاثنتي عشرة وهو الذي أنقذ ثيسيوس من دار الموتى حين هبط إليها مع بيريتوس ، أهدت إليه زوجه قميصاً مسموماً قدرت أنه سيرده إليهـــا فأذاقه الموت .

(٣) أمفال : ملكة ليديا ، شغف حبها قلب هيرقل فأذله حتى اتخذ المغزل بين يديها كما تصنع النساء .

(٤) انتيوب : ملكة الأمازون تزوجها ثيسيوس فولدت له ابنه هيبوليت.

الأمازون[١] ، وكانت كبقية رعيتها الإناث عوراء الصدر ليس لها إلا ثدي واحد، ولكن هذا لم يكن يعيبها . كانت قد مرنت على السباق والصراع ، وكانت عضلاتها صلاباً غزاراً كعضلات المصارعين من فتياننا . جاهدتها . وكانت تضطرب بين ذراعي، كأنها السنور العظيم . فإذا نزع سلاحها جـــاهدت بالمخالب والأسنان ، وكانت تثور حين تراني أضحك – وكنت مثلهـا لا سلاح لي – وتثور خاصة لأنها لم تكن تملك ان تصرف عني حبها، لم تتح لي قط امرأة أجمع منها لخصال العذراء ولا عليّ بعد ذلك انها لم ترضع ابننا هيپوليت إلا من ثدي واحد، فقد كنت حريصاً على ان يكون هذا العفيف النافر ولي عهدي . وسأقص فيما بعد ما جعل حياتي كلها حداداً . فليس يكفي ان يوجد الإنسان ، ولا ان يكون قد وجد، وإنما يجب ان يورث ويعمل بحيث يشعر ان وجوده لم يتم ، وأنه ما زال متصلاً محتاجاً الى ان يكمل . كذلك كان يعيد عليّ جدي . لقد كان بيتيه[٢] وإيجيه أذكى مني قلباً ، كما ان پيرتيوس يفضلني الآن في الذكاء . ولكن يعرف الناس فيّ حسن التقدير فأما سائر خصال الخير فتأتي بعد ذلك

---

(١) الأمازون : شعب من النساء المحاربات كان يعيش على ساحل البحر الأسود غزاه هيرقـــل وبلليروفون وثيسيوس الذي تزوج ملكته .

(٢) بيتيـــه : ملك يوناني قديم كان يعرف بالحكمة وهو جد ثيسيوس لأمـــه .

ما دمت لم أفقد قط الإرادة التي تدفعني الى الرغبة في الإتقان لكل ما أحاول . كما ان لي حظاً من شجاعة يدفعني الى محاولة الأمور الجسام . كنت من أشد الشباب طمعاً ، وكانت المآثر التي تنقل إليّ عن ابن خالتي هرقل تزيد شبابي طموحاً وقلقاً ، ولما تركت تريزين[1] وهي المدينة التي كنت أعيش فيها لألحق في أثينا بأبي المفروض ، لم أرد ان أسمع للنصائح التي قدمت إليّ على ما كانت تمتاز به من سداد . كان يشار عليّ بركوب البحر ، لأن طريق البحر أشد أمناً . ومن أجل هذا الخطر كنت أوثر طرق البر لأنها بما فيها من التواء كانت تتيح لي ان أظهر حسن بلائي . وكانت جماعات مختلفة من قطاع الطرق قد ملأت الأرض فساداً أسرفت في ذلك آمنة منذ أخذ هيرقل يستأنث على قدمي أومفال . كنت في السادسة عشرة . وكان الميدان أمامي رحباً ، وكانت نوبتي قد حلّت ، وكان قلبي يتوثب الى أقصى حدود ما كنت أجد من فرح ومرح . هنالك صحت : مـــا حاجتي الى الأمن او الى طريق قد طهرت من الخوف . وكنت أزدري الراحة في غير مجد ، كما كنت أزدري الترف والكسل . وإذن فقد جربت نفسي حين سلكت الى أثينـــا

---

(١) تريزين : مدينة في الشرق الجنوبي لبلاد اليونان كان يملـــك عليها بيتيه وفيها ولد ثيسيوس .

برزخ پيلوپونيز [١] ، فعرفت قوة ذراعي ، وقوة قلبي ، حين قهرت بعض المخوفين من قطاع الطريق : سنيس [٢]، بيربيتيس، بروكروست [٣] ، جيريون [٤] ، (لقد أخطأت إنما قهره هيرقل ، أما أنا فقد أردت ان أقول سيرسيون [٥]) ، بل ارتكبت في ذلك الوقت خطأ يسيراً حين أسأت الى سيرون [٦] ، وكان فيما يظهر رجلاً كريماً حسن النية حسن الرعاية لمن يمر بـه ، ولكني لم أعلم ذلك إلا بعد فوات الوقت ، ومن حيث إني قد ظهرت عليه وقتلته فقد تقرر انه كان مجرماً أثيماً .

وفي طريقي الى أثينا أيضاً لقيت أول ابتسامات الحب بين

---

(١) بيلوبونيز : هو شبه الجزيرة الذي تنتهي به بلاد اليونان جنوباً ويعرف الآن باسم مورا وهو يتخذ اسمه القديم من بيلوبس الذي فتحه .

(٢) سنيس : قاطع طريق مشهور يقال إنه من ولد بوسيدون قتله ثيسيوس .

(٣) برركروست: قاطع طريق مشهور في أتيكا قهره ثيسيوس .

(٤) جيريون : مارد ذو رؤوس ثلاثة وأجسام ثلاثة قهره هيرقل وساق قطعانه .

(٥) سيرسيون : قاطع طريق من ولد بوسيدون قتله ثيسيوس .

(٦) سيرون : قاطع طريق في برزخ كورنت قتله ثيسيوس .

جماعة من نبات الهليون . كانت بيريجون[1] طويلة لدنة ، وكنت قد قتلت أباها ، فكافأتها بأن منحتها غلاماً رائعـــاً هو : ميناليپ[2]. وقد فقدت الصبي كما فقدت أمه لأني تحولت عنهما، حريصاً على ألا أتأخر في الطريق . وكذلك كنت دائماً أقـــل اشتغالاً واتصالاً بما عملت ، مني بما ينبغي ان أعمل . وكنت أرى ان أشد الأشياء خطراً هو ما أنتظر لا ما أتممت .

ومن هنا لن أطيل الوقوف عند هذه المعدات اليسيرة التي لم تكد تمسني إلا قليلاً . ولكن هأنذا بإزاء مغامرة رائعة لم يتح مثلها لهيرقل نفسه . فيجب ان أقصها مفصّلة .

---

(١) بيريجون : بنت المارد سينيس منحت ثيسيوس أحد أبنائه .

(٢) ميناليب : هو الابن الذي ولدته بيريجون لثيسيوس .

٣

إنها قصة معقدة . يجب ان أقول قبـل كل شيء ان جزيرة أقريطش كانت قوية . وكان يملك عليها مينوس[١] وكان يرى أتيكا مسؤولة عن موت ابنه أندروجيه[٢] ، وكان قـد فرض علينا ليعاقبنا ضريبة يجب ان نؤديها في كل عام . كان يجب ان نقدم إليه سبعة من الفتيان وسبعاً من الفتيات ليقربوا فـيما كان يقال طعاماً للمينوتور[٣] ، وهو الكائن الغريب الذي ولدتـه باسيفاييه[٤] زوج مينوس حين كانت بينهـا وبين ثور بعض

---

(١) مينوس : أول ملوك أقريطش وهو زوج باسيفاييه وأبو أريان وفيدر . ويقال ان الآلهة اختاروه قاضياً في دار الموتى .

(٢) أندروجيه : ابن مينوس ملك أقريطش وزوجه باسيفاييه .

(٣) المينوتور : كائن غريب فيه ملامح الانسان والثور ولدته باسيفاييه ملكة أقريطش حين أحبت ثورها الأبيض . وقد قتـله ثيسيوس .

(٤) باسيفاييه : زوج مينوس ملك أقريطش أحبت ثوراً أبيض فولدت له المينوتور الذي حبسه زوجها مينوس في اللابيرنت .

الصلات . وكان هؤلاء الضحايا يختارون من طريق القرعة .

وكنت في هذا العام قد عدت الى بلاد اليونان . ومع ان الحظ كان خليقاً ان يحميني – فهو يحمي الأمراء عن رضا – فقد ألححت في ان أكون بين الضحايا على رغم ما وجدت من مقاومة الملك والدي ... فلست في حاجة الى الامتيازات الموروثة ، ولا أريد ان أمتاز إلا بشجاعتي وبأسي . وكنت أدير في نفسي اني سأقهر المينوتور وأريح اليونان من هذه الضريبة البشعة ، وكنت على ذلك مشوقاً الى ان أرى أقريطش التي كانت ترسل إلينا في أتيكا بغير انقطاع أشياء جميلة مترفة غريبة . فقد سافرت إذن بعد ان انضممت الى الثلاثة عشر الآخرين وبينهم صديقي بيريتوس .

وقد ألقت سفينتنا مرساها ذات صباح من أيام مارس في ضاحية أمنيسوس[1] وهي الميناء القريب بمدينة كنوسوس[2] عاصمة الجزيرة حيث يقيم الملك وحيث بنى قصره . وكان يجب ان نصل من الليل ، ولكن عاصفة شديدة أخرتنا . فلما هبطنا الى الساحل أحاط بنا أحراس مسلحون ، ثم أخذوا سيفي وسيف صديقي بيريتوس ، واستوثقوا من اننا لا نحمل سلاحاً آخر ، ثم قادونا لنمثل بين يدي الملك الذي أقبل من كنوسوس

(١) أمنيسوس : ثغر في جزيرة أقريطش .

(٢) كنوسوس : مدينة في أقريطش كانت عاصمة الملك مينوس .

مع حاشيته . وكانت جماعات ضخمة من الشعب تزدحم لترانا . وكان الرجال جميعاً عراة الصدور والظهور ، وكان مينوس وحده وقد جلس تحت مظلته قد اتخذ رداء أحمر قانياً غير مخيط يتدلى من كتفيه الى كعبيه في أثناء فخمة . وعلى صدره العريض كأنه صدر ثوس قد انتظمت عقود ثلاثة بعضها فوق بعض . وكثير من أهل الجزيرة يتخذون مثل هذه العقود ولكنها عقود مبتذلة . أما عقود الملك فكانت تأتلف من الجمان وقطع من الذهب قد نقشت عليها أزهار السوسن . وكان يجلس على عرش تعلوه الفأس المثناة ، واتخذ في يمينه التي قدمها الى أمام مباعداً بينها وبين جسمه صولجاناً من الذهب يبلغ قامته طولاً ، وأمسك بيده الأخرى زهرة مثلثة الأوراق تشبه ما اشتملت عليه عقوده لولا انها أكبر منها . وهي في أكبر الظن من ذهب . وعلى تاجه الذهبي قامت علامة ضخمة من ريش الطاووس والنعام والألكيون [1] . وقد أطال النظر إلينا بعد ان رحب بنا في جزيرته مجرياً على ثغره ابتسامة توشك ان تكون ساخرة ؛ فقد كان يعلم أننا إنما أتينا الى جزيرته مقضياً علينا . وكانت الملكة وابنتاها الأميرتان قائمات الى جانبه . وقد خيل إليّ فوراً ان كبرى الأميرتين قد لحظتني . وقد هم الأحراس ان يقودونا ولكني رأيتها تميل الى أذن الملك وتقول له في صوت خافت باليونانية . وقد سمعتها لأني دقيق السمع : « إني أضرع إليك في

---

(١) ألكيون : طائر خرافي من طير البحر .

ان تبقي على هذا» . تقول ذلك وهي تشير إليّ باصبعها. هنالك ابتسم مينوس وأصدر أمره فلم يقد الحرس إلا رفاقي . ولم أكد أنفرد بين يديه حتى أخذ في سؤالي .

ومع اني قد أزمعت ان أصدر عن الحذر الشديد في كل ما آتي ، وألا أظهر شيئاً من نسبي النبيل ، ولا من خططي الجريئة ، وقد ظهر لي فجاءة ان من الخير ان ألعب لعباً صريحاً ما دامت الأميرة قد التفتت إليّ ، وان شيئاً لن يستطيع ان يصل بينها وبيني ويكفل لي عطف الملك عليّ كما يستطيع ذلك إعلاني إليها اني حفيد بيتيه . بل قد لمحت بأن الناس يتحدثون في أتيكا بأن پوسيدون العظيم قد ولدني . هنالك قال الملك في جد : سنتبين ذلك بعد قليل حين نخضعك لامتحان الموج . فلم أتردد في ان أجيب بأني واثق بأن أخرج ظافراً من كل امتحان. وقد أظهر سيدات القصر هؤلاء شيئاً من التأثر حين رأين ثقتي بنفسي ، وإن كنت لم أرَ ذلك في وجه مينوس . قال الملك :

— أما الآن فانصرف الى تجديد قواك . فإن رفاقك ينتظرونك على المائدة ، ويجب ان تكون محتاجاً كما يقال هنا الى ان تقيم أودك بعد هذه الليلة الشاقة . خذ حظك من الراحة. وأرجو ان تشهد عند آخر النهار ألعاباً رسمية ستقام تكريماً لك . ثم نستصحبك أيها الأمير ثيسيوس الى كنوسوس ، حيث تنام في غرفة من غرفات القصر ثم تشاركنا من غد في العشاء . سيكون عشاء يسيراً ، عشاء أسرة ، ترسل فيه نفسك على

سجيتها ويسعد هؤلاء السيدات بأن يسمعنك تحدثهن بما قدمت من مآثر وما أحسنت من بلاء . أما الآن فسيتخذن زينتهن استعداداً للحفل . سنلقاك هناك وستجلس مع رفاقك تحت المقصورة الملكية مباشرة ، ذلك مكان مقسوم لك لأنك أمير . وسيشرف رفاقك بالجلوس فيه معك ؛ فما أحب ان أفرق بينك وبينهم .

وقد أقيم هذا الحفل في ملعب عظيم في شكل نصف دائرة ينفرج مما يلي البحر. وقد شهده جمهور ضخم من الرجال والنساء أقبلوا من كنوسوس وليتوس[1]، بل جاء بعضهم من جورتين[2]، على أنها تبعد عن مكان الحفل نحو مئتي فرسخ ، وجاء بعض الناس من مدن وقرى أخرى مجاورة، كما جاء آخرون من الريف الذي يقال انه مكتظ بالسكان . وكان الدهش يأخذني من جميع حواسي ، ولم أكن أستطيع ان أصور الى أي حد كنت أرى أهل الجزيرة غرباء . ولما لم يكن يتاح لهم جميعاً ان يتخذوا مجالس في المدرج ، فقد كانوا يزدحمون ويتدافعون في المسارب وعلى درجات السلم . وكانت جماعة النساء ضخمة كجماعة الرجال ، وكن عاريات الصدور والظهور ، وقليل منهن كن يتخذن القراطق قد انفرجت عن صدورهن انفراجاً واسعاً رأيته مخالفاً للحياء لما كان يظهر من أثدائهن . وكانوا جميعاً رجالاً

(١) ليتوس : مدينة في أقريطش .

(٢) جورتين : مدينة في أقريطش .

ونساء قد اتخذوا مناطق شدوها شداً عنيفاً على أوساطهم ، فبدت خصورهم غاية في الضآلة والنحول كأنها المرامل . وكان الرجـــال سمراً قد اتخذوا في أيديهم وسواعدهم وأعناقهم من الخواتم والأساور والعقود مثل ما اتخذ النساء . وكانت كثرتهن تمتاز ببياض البشرة ؛ وكانت الوجوه كلها حليقة لا يستثنى من ذلك إلا وجه الملك ووجه أخيه رادامنت[1] ووجه صديقه ديدال[2]. وكان سيدات القصر قد اتخذن أماكنهن في المقصورة التي أجلسنا تحتها وقد عرضن زينة رائعة مترفة من الثيـــاب والحلى ، وأشرفن على ميدان اللعب . وكانت كل واحدة منهن قد أحاطت خصرها بثوب ألحقت به قطع عِراض من النسيج ، فهو منتفش في صورة رائعة مما يلي الخصر ، ثم هو يتدلى في منظر جميل مختلط حتى يبلغ الأقدام التي حبست في أحذية من الجـلد الأبيض ، وكانت الملكة في وسط المقصورة تمتاز منهن جميعاً بزينتها الفخمة . قد عري صدرها وذراعاها . وقد قصلت على ثدييها العظيمين ضروب الجوهر من اللؤلؤ والمينا والأحجـار النفيسة . وقد أحيط وجهها بخصل طويلة سود ، ورصفت على جبهتها خصيلات دقـــاق . وكانت شرهة الشفتين ، منقبضة

---

(١) رادامنت : هو أخو مينوس ملك أقريطش ، ولدا جميعاً لذوس من عشيقته الفينيقية أوروب . وكلاهما كان مشرعاً في حياته وقاضياً بعد موته .

(٢) ديدال : مهندس ومثال أثيني بنى اللابيرنت لمينوس .

الأنف ، كبيرة العينين فارغتها ترسل منها نظرات توشك ان تشبه نظرات الصوار . وقد اتخذت شيئاً يشبه ان يكون تاجاً من الذهب لم تضعه على شعرها مباشرة، وإنما وضعته على قلنسوة قائمة غريبة تثير الضحك ، وهي تنفذ من التاج وتنتهي بطرف مرتفع محدد ينعطف الى الأمام كأنه القرن قد انحنى على جبهتها. وكان قرطقها المفتوح من أمام الى منطقتها يرقى على ظهرها حتى يبلغ العنق ، فيحاول ان يحيطه ببنيقة شديدة الانفراج . وكان ثوبها النصفي المنتشر من حولها يعرض للإعجاب على بياضه المشرب بالصفرة ضروباً من الطراز بعضها دون بعض ، منها ما يصور السوسن الأرجواني ، ومنها ما يصور الزعفران، وأسفلها يصور زهرات البنفسج وقد أحاطت بها أوراقها الخضر . ولما كنت تحت مقصورتها كنت أراها من قريب جداً كلما التفتّ الى وراء . وكنت أفتن بحسن اختيار الألوان وجمال الطراز ودقة العمل وبلوغه حد الكمال .

وكانت أريان [١] ابنتها الكبرى قد جلست عن يمين أمها مشرفة على اللعب وقد اتخذت زينة أقل فخامة من زينة الملكة، واتخذت ثوبها من لون آخر ؛ فلم يكن ثوبها النصفي ولا ثوب أختها يحملان إلا صفين من الطراز ،فأما الصف الأعلى فكان يرسم

---

(١) اريان : هي ابنة مينوس وباسيفاييه أحبت ثيسيوس فأنقذته بخيطها من اللابيرنت وفرت معه ولكنه تركها في بعض الطريق .

كلاباً ومهاً ، وأما الصف الأسفل فكان يرسم كلاباً وحجلاً. أما فيدر[1] فكان واضحاً أنها أصغر من أختها سناً ، وقد جلست عن يسار أمها باسيفاييه ورسم الصف الأعلى من طراز ثوبهـــا أطفالاً يعدون وراء الأطواق ، كما رسم الصف الأسفل أطفالاً صغاراً قد انحنوا يلعبون بالحصباء . وكانت تنعم بمنظر اللعب في طفولة ظاهرة. وكنت أنا لا أتبع اللعب إلا قليلا ، قد أخرجني عن طوري كل هذه الأشياء التي لا عهد لي بمثلها . ولكني كنت شديد الدهش بمـــا كنت أرى من مرونة اللاعبين ورشاقتهم وسرعتهم حين كانوا يغامرون بالظهور على الميدان بعد أن تتركه لهم جماعات الغناء والرقص والصراع . وإذ كنت أتهيأ لمواجهة المينوتور فقد كنت حريصاً على أن أنتفع بمـــا كنت أرى من من مكرهم وتسللهم لعلي أستعين بشيء من ذلك على إجهاد الثور وإذهاله .

---

(١) فيدر : هي أخت اريان تزوجهـــا تيسيوس فأحبت ابنه الشاب هيبوليت ولم تجد عنده صدى لحبها ، فاتهمته عند أبيه وكان ذلك سبباً لموته . ثم أخذها الندم فقتلت نفسها .

٤

ولما قدمت أريان الجائزة لآخر الفائزين نهض مينوس مؤذناً بانتهـــاء الحفل ، ودعوني وحيداً للقائه وقد وقف يحيط به الحرس .

فلما صرت بين يديه قال لي :

– سأقودك أيها الأمير تيسيوس الآن إلى ساحـــل البحر وأمتحنك هناك لنتبين أنك في الحق من ولد پوسيدون .

ثم قادني إلى صخرة ترتفع متقدمة إلى البحر ويلطم الموج أسفلها . وقال لي :

– سألقي تاجي في البحر لأبين لك أني واثـق بأنك سترده إليّ .

وكانت الملكة والأميرتان قد رغبتا في شهود الامتحان ، فشجعني ذلك واندفعت أقول معترضاً :

ـ أكلب أنا لأرد شيئاً إلى صاحبه ، وإن كان هذا الشيء تاجاً ! دعني أغص في البحر لغير غاية ، ولك أن آتيك بما يدلك على أني قد أحسنت الغوص .

ودفعت الجراءة إلى أبعد من هذا . فقد مرت نسمة قوية بعض الشيء ، فنزعت عن كتف الأميرة أريان طرحة وحملتها نحوي ، فلم ألبث أن التقفتها مبتسماً كأن الأميرة أو إلهاً من الآلهة قد قدمها إليّ . ثم خرجت من الصّدارة التي كانت تشل حركتي وأحطت خصري بهذه الطرحة ممرّا طرفها بين فخذي ، ثم آخذاً له إلى أمام حتى أثبته عند الخصر ، أُخيّل بذلك أن الحياء هو الذي يدفعني إلى هذا الصنيع لأستر من جسمي ما لا ينبغي أن يرى ، ولكني في حقيقة الأمر إنما أردت أن أخفي منطقة من الجلد كنت قد استبقيتها ، وكنت قد علقت بهذه المنطقة كيساً صغيراً من الجلد . ولم أكن قد أحرزت في هذا الكيس شيئاً من النقد ، وإنما أحرزت فيه طائفة من الأحجار الكريمة اصطحبتها من بلاد اليونان ثقة مني بأن الأحجار الكريمة تحتفظ بقيمتها في كل مكان .

ثم تنفست تنفساً عميقاً ، واندفعت إلى البحر فغصت فيه . غصت فيه ممعناً في الغوص وكنت في ذلك ماهراً ، ثم لم أْطفُ على سطح الماء إلا بعد أن استخرجت من الكيس ثلاثة أحجار من نفيس الجوهر أحدها من عقيق الجزع والآخران من العقيق الأخضر ، فلما بلغت الساحل قدمت في ظرف الى الملكة عقيق

الجزء والى كل من الأميرتين حجراً آخر ، مظهراً أني قـــد استخرجتها من القاع ، بل مظهراً ان پوسيدون قد قدمها إليّ لأهديها الى هؤلاء السيدات . ولم يكن بد من هذه الحيلة ؛ فـلم يكن من السائغ ان توجد في أعماق البحر عند جزيرة أقريطش هذه الأحجار النادرة في بلادنا ، فضلاً عن ان أجـــد الوقت لتخيرها تحت الماء . وكان هذا أدلّ من الامتحان نفسه على اني من نسل إلهي .

هنالك رد مينوس إليّ سيفي .

ثم حملتنا العربات بعد قليل الى كنوسوس .

٥

وكنت مجهوداً قد بلغ بي الإعيـاء أقصاه ، حتى لم أدهش لهذا الفناء العظيم المنبسط أمام القصر ولهـذا السلم الضخم ذي العمد الدقاق ، ولهذه الدهاليز الملتوية التي كان يقودني فيها خدم خفاف يسعون بين يديّ بالمشاعل حتى انتهوا بي الى الغرفة التي هيئت لي في الطابق الثاني والتي كانت تضيئها جماعة من المصابيح. فلم أكد أدخلها حتى أطفئت كلها إلا واحداً . وعلى مضجع وثير عطر غرقت منذ تركوني في نوم عميق حتى كان المساء من غد ، ومع ذلك فقد نمت في العربة نوماً طويلاً ، فلم نصل الى كنوسوس إلا حين أسفر الصبح ، وبعد سفر أنفقنا فيه الليل كله . ولست آلف الغربة ، فلم ألبث ان لاحظت في قصر مينوس أني يوناني وأحسست أني غريب . وكنت أدهش لكل ما ليس لي به عهد من الأزياء والعادات ، وما يتخذ النـاس في سيرتهم من الصور والحركات والأثاث (وكان الأثاث في قصر أبي قليلاً ضئيلاً) كما كنت أدهش للأدوات وطرق استعمالهـا . كنت أرى نفسي متوحشاً بين هذا الترف الرقيق ، وكان خطئي يزداد كلما دعا الى الابتسام ، وقد كنت متعوداً ان أتناول الطعام بغير أداة ،

أحمله الى فمي بأصابعي ، وكنت أجد هذه الشوك المعـدنية او الذهبية المنقوشة وهذه السكاكين أثقل تصريفاً عليّ حين أجلس الى المـائدة من السلاح حين كنت أصرّفه في الميدان . وكانت النظرات توجه إليّ وتثبت فيّ ، وكنت أمعن في الخطـأ حين كنت أشارك في الحديث . يا للآلهة ! لقد كنت أجد نفسي في غير موضعي . وأنا الذي لم يحسن قط شيئاً إلا أثنـاء الوحدة ، أصبحت أراني أشارك في حياة اجتماعية . ولم يكن المهم ان أجاهد وان أتخذ القوة وسيـلة الى الفوز ، وإنما كان المهم ان أعجب ، وكنت قليل العلم بوسائل ذلك الى حد بعيد .

وقد أجلست الى مائدة العشاء بين الأميرتين ، وكان العشاء فيما قيل بسيطاً ، عشاء أسرة لا تكلف فيه . والواقع ان أحداً لم يشهده إلا الملك والملكة ، ورادامانت أخو الملك والأميرتان وأخوهما الصبي جلوكوس[١] ومربيه اليوناني الكورنثي الذي لم يُعنَ أحد بتقديمه إليّ .

وقد دعيت الى ان أقص في لغتي (التي كان أهل القصر يفهمونها ويتكلمونها على أحسن وجه مع شيء قليل من انحراف اللسان) مـا كان يسمى حسن بلائي . وقد سرني ان رأيت الأميرة الفتاة فيدر وأخاها جلوكوس يضحكان حين كنت أقص تمثيل بروكروست بضحاياه وإخضاعي إياه لنفس المثـلة حين

---

(١) جلوكوس : ابن مينوس وباسيفاييه .

كنت أقطع من أطرافه ما كان يتجـــاوز مضجعه . ولكنهم تجنبوا في شيء من الرقـــة ان يشيروا الى المهمـة التي جاءت بي الى أقريطش ، ولم ينظروا إليّ إلا على أني مسافر ضيف .

ولم تنقطع أريان طوال العشاء عن مداعبة ركبتي بركبتها تحت غطاء المائدة ، ولكن الحرارة التي كانت تنبعث من فيدر الفتاة هي التي كانت تشيع فيّ القلق ، على حين كانت باسيفاييه الملكة جالسة أمامي تزدردني بلحظها ازدراداً ، وكان مينوس الى جانبها يحتفظ على ثغره بابتسامة صـافية لا تعرف الكدر . أما رادامانت ذو اللحية الطويلة الشقراء ، فقد كان وحده يظهر شيئـاً من العبوس . وقد انصرف الملك وأخوه عن غرفة المائدة بعد الصنف الرابع لأنهما كانا مضطرين فيما كانا يقولان الى الجلوس للقضاء . ولم أفهم إلا أخيراً معنى ما كانا يريدان .

لم أكن قـــد برئت بعدُ من ألم البحر ، وقد أكلت كثيراً وشربت أكثر مما أكلت ألواناً مختلفة من الخمر وفنوناً أخرى من الأشربة ، بحيث لم يمض إلا وقت قصير حتى دارت بي الأرض وأنكرت نفسي ؛ فـلم أتعود من قبل ان أشرب غير المـاء او النبيذ المقتول . ولما كدت أفقد الصواب وكنت محتفظاً بفضل من قوة يمكنني من النهوض ، استأذنت في الخروج . هنـالك

قادتني الملكة الى حمام صغير متصل بمنزلها من القصر . فلما تخففت مما كان يثقلني بقيء غزير لحقت بها في غرفتها فأجلستني الى جانبها على فراش وثير وأخذت تتحدث إليّ . قالت :

— أي صديقي الشاب ... أتأذن في ان أدعوك بهذا الدعاء لننتفع مسرعين بهذه اللحظة القصيرة التي يخلو فيها كلانا الى صاحبه ! لست كما تظن ولست أريد شخصك بريبة على ما أتيح لك من جمال وفتنة .

وعلى إلحاحها في أنها لم تكن تتجه إلا الى نفسي او الى شيء لا أعرفه في أعماق ضميري ، لم ترَ بأساً بأن ترفع يدها الى جبهتي . ثم تدسّها من دون صدارتي الجلدية متحسسة عضلات صدري كأنها تريد ان تتثبت من محضري . قالت :

— لست أجهل ما جاء بك الى هذه الجزيرة ، وأريد ان أتقي خطأ . فقد أقبلت مزمعاً القتل . أقبلت تريد ان تصارع ابني . ولست أعلم بماذا حدثت من أمره ، وليس يعنيني ان أعلم . آه لا تصم أذنيك عما يوجه اليك قلبي من دعاء . ليكن المينوتور هو الوحش الذي صُوّر لك او لا يكن ، فإنه ابني .

وهنا رأيت من حسن الذوق ان أقول إني أحب الوحوش !

ولكنها مضت في حديثها دون ان تسمع لي :

– إفهم عني ! إني أضرع إليك ! ان لي طبيعة متصوفة تحب بل لا تحب إلا ما يتصل بالآلهة . والشيء الذي يغيظ هو اننا لا نعلم أين يبتدىء الإله ولا أين ينتهي . وقد أطلت عشرة قريبتي ليدا [١] ومن أجلها اتخذ الإله صورة بجعة . وقد فهم مينوس طمعي في ان ألد له وارثاً من أبناء الآلهة . ولكن كيف السبيل الى ان نميز مـــا يبقى من الحيوان فيما يلقى الآلهة أنفسهم في الأرحام ؟ وإذا كان قد كتب عليّ ان أندم على خطئي – وأنا أشعر بأن تحدثي إليك على هذا النحو يسلب الأمر كل عظمته – فإني أوكد لك أي ثيسيوس ان الأمر كان إلهياً حقاً في اللحظة نفسها . فقد ينبغي ان تعلم ان ثوري لم يكن حيواناً عــادياً . كان پوسيدون قد قدمه إلينا . كان يجب ان نرده إليه قرباناً ، ولكن مينوس رآه أجمل وأروع من ان يضحي به . وهذا هو الذي حملني فيما بعد ان أفسر زلتي بأنها كانت انتقاماً من الإله . وأنت لا تجهــل ان حماتي أوروپ [٢] قــد اختطفها ثور تقمصه

---

(١) ليــدا : زوج تندار ملك اسبرتا أحبها ذوس فولدت ابنيها كستور وبولوكس وابنتيها هيــلانة التي سببت حرب طروادة وكليتمنستر التي قتلت زوجها أجاممنون .

(٢) أوروب : بنت اجينور ملك فينيقيا أحبها ذوس واختطفها فولدت له مينوس ملك أقريطش وأخاه رادامنت .

ذوس . ومن زواجها بهذا الثور ولد مينوس نفسه . وهـذا هو الذي حمل أسرته على ان تعظم أمر الثيرة . فلما ولد المينوتور ورأيت الملك يقطب حاجبيه لم يكن لي الا ان أقول له : وأمك ما خطبها ؟ وكان من الحق عليه ان يفهم ان من الممكن ان أكون قد أخطأت وهو رجل حكيم ، وهو يعتقد ان ذوس قد ولاه مع أخيه رادامانت القضاء في دار الموتى . وهو يرى ان من الحق ان يفهم الإنسان قبل ان يقضي ويقدر أنه لن يكون قاضياً عدلاً إلا بعد ان يمتحن في نفسه او في أسرته بكل ألوان المحن . وفي هذا تشجيع عظيم لذوي قرابته ، فأبناؤه وأنا، على ما يكون بيننا من اختلاف الأمزجة والأهواء ، نعمل بأغلاطنا الخاصة لنحسن إعداده لمنصبه المنتظر . والمينوتور نفسه يشارك في ذلك عن غير علم . ومن أجل ذلك أطلب إليك يا ثيسيوس، بل أتوسل إليك لا في ألا تسوءه بل في ان تصالحه وتتفق معه على نحو يمحو الخصومة بين اليونان وأقريطش ، ويزيل آثارها المنكرة في البلدين .

كذلك كانت تتحدث معملة يدها في إلحاح من دون صدارتي حتى ضقت بذلك أشد الضيق ؛ فقد كنت متأثراً ببخار النبيذ وبهذا العطر الأرج الذي كان يفلت، مع ثدييها من قرطقها المفتوح . قالت :

– لنعد الى الأمر الإلهي ؛ فقد يجب دائماً ان نعود إليـه . وكيف لا تشعر يا ثيسيوس بأن إلهاً قد تقمصك !..

وكان مما يزيد نفسي ضيقاً ان أريان ذات الجمال الرائع الفاتن – وإن كنت أوثر أختها الصغرى – كانت قد واعدتني باللحظ واللفظ على ان نلتقي في الحديقة بعد ان أفيق .

٦

أي حديقة ! ولأي قصر ! يا لهـــا جنة مشوقة قد تعلقت بانتظار شيء لا أدري مـــا هو ... تحت ضوء القمر . كان ذلك في شهر مارس ، وكان الربيـع قد أخذ يخفق في دفء حلو . ولم أكد ألقى الهواء الطلق حتى انجلى عني كل ضيق . فلست آلف الحياة في أعماق الدور ، وإنما أوثر ان أتنفس ملء رئتيّ . وقد أسرعت إليّ أريان ثم ألصقت في لهفة وعنف شفتيها الى شفتي حتى كدنا نسقط جميعاً . قالت :

ـ هلم . لا عليّ ان يرانا الراءون . ولكن ظل الضرم أوفق للحديث .

ثم هبطت بي درجات وقادتني الى مـــكان من الحديقة يشتد فيه التفاف الشجر حتى يخفي القمر دون ان يخفي انعكاس ضوئه على البحر ، وكانت قد استبدلت من ثوبها النصفي ذي الأطواق ومن منطقتها الصلبة ثوباً واسعاً فضفاضاً كانت تـُحس من دونه عارية . قالت :

ـ أكاد أعرف ما تحدثت إليك به أمي . إنهـــا مجنونة .

مجنونة تستحق القيد ، وما ينبغي ان تحفل بما تقول . فأعلم أولاً أنك معرض هنا لخطر عظيم . فأنا أعلم أنك أقبلت لتصارع المينوتور أخي لأمي، وإنما أريد منفعتك، فأحسن الإصغاء إليّ. وأنا واثقة بأنك ستظهر عليه ،

فمرآك يثبت ان فو   زك واقع لا شك فيه

ألست ترى ان هذه الجملة تزن بيتاً جميلاً من الشعر ؟ ألست رقيق الحس ؟ ولكن أحداً قبلك لم يستطع الخروج من اللابيرنت [١] داره التي يسكنها ولن تستطيع أنت ان تخرج من هذه الدار إلا ان أعينك أنا ، أنا خليلتك ، أنا التي ستصبح خليلتك . ليس من اليسير ان ترسم لنفسك صورة مقاربة للابيرنت . سأقدمك إذا كان الغد الى ديدال وسيصفها لك . فهو الذي بناها وهو نفسه لا يستطيع الآن ان يهتدي فيها الى طريقه . وسينبئك كيف ضل فيها ابنه إيكار [٢] حتى لم يستطع ان ينجو منها إلا طائراً في الهواء بجناحين . ولكني لا أجرؤ على ان أشير عليك بالطيران فإنه مغامرة خطرة . والشيء الذي يجب ان تفهمه منذ الآن هو ان أملك الوحيد في النجاة رهين

---

(١) اللابيرنت : قصر بناه ديدال لمينوس ملك أقريطش وفيه كان سجن المينوتور ومن خصائصه ان من دخله لا يستطيع ان يجد منه مخرجاً .

(٢) إيكار : ابن ديدال حاول ان يطير بجناحين من ريش وشمع ، فأذابت الشمس جناحيه فهوى ومات .

بـألا تتركني . لقد توثقت بينك وبيني منذ الآن صلة لا تنفصم ولا ينبغي ان تنفصم بحياة او موت. لن تجد نفسك إلا بمعونتي ، إلا بي ، إلا فيّ . هذا شيء يجب ان تأخذه او تدعه ليس لك من دون ذلك خيار ، فإذا تركتني فالويل لك . وإذن فهيت لك .

ثم أقبلت عليّ غير حافلة بشيء واستسلمت لي محتفظة بي بين ذراعيها حتى أسفر الصبح .

ويجب ان أعترف بأن وقت هذا اللهو قد طال عليّ . فلم أحب قط الإقامة حتى في ظلال النعيم ، وإنما أنا مشغوف بالتنقل متى ذهبت عني جدة ما ألقى من الأمر . ثم جعلت تقول : «لقد وعدتني» . ولم أكن قد وعدت بشيء ، وإنما كنت حريصاً على ان أستبقي حريتي فلست مديناً بنفسي إلا لنفسي .

ومع ان قوتي على الملاحظة كانت لا تزال مغشاة ببخار السكر ، فقد خيل إليّ أنها استسلمت في يسر حتى لم أعتقد اني كنت السابق الى رضاها . وهذه الملاحظة هي التي طوّعت لي فيما بعد ان أتخلص من أريان . وفوق ذلك فما أسرع ما ضقت بإسرافها في تكلف الرقة ! ضقت بإلحاحها في تأكيد حبها الأبدي ، وبهذه الأسماء الحلوة التي كانت تدعوني بها . فقد كنت مرة متاعها الوحيد ، ومرة كنارها ، ومرة كليبها ومرة صُقَيْرها ومرة قصيصتها .. ولست أبغض شيئاً كما أبغض هذه الألفاظ المصغَّرة . ثم انها كانت مشغوفة بالأدب . فقد كانت تقول لي: «أي قلبي الصغير ، سيذبل زهر السوسن عما قريب» .

على حين ان هذا الزهر كان قد بدأ يتفتح . وأنا أعلم ان كل شيء يمضي ، ولكني لا أحفل إلا بالساعة الحاضرة . وكانت تقول لي أيضاً : « لن أستطيع ان أعيش بدونك » . وكان هذا يدفعني على ألا أفكر إلا في ان أعيش بدونها . وقد سألتها :

– ما عسى ان يقول أبوك الملك ان عرف هذا ؟

فأجابت :

– تعلم أيها الحبيب ان مينوس يحتمل كل شيء ، فهو يرى ان أحكم الحكمة ان يقبل الإنسان ما لا يستطيع له رداً. لم ينكر شيئاً حين عرف مغامرة أمي مع الثور، وإنما زعم – كما حدثتني أمي – أنه لا يستطيع ان يمضي في محاورتها . ثم أضاف : « قد كان ما كان ، وليس الى استدراكه من سبيل » . وسيقول هذا القول نفسه بالقياس إلينا . وأقصى ما في الأمر ان يطردك من قصره . وأي بأس بهذا سأتبعك حيثما تكون .

وكنت أقول في نفسي : سترى !

وبعد ان أخذنا بحظنا من طعام يسير ، سألتها ان تصحبني الى ديدال، وأنبأتها بأني أريد ان أخلو إليه وأدير معه الحديث؛ ولم تتركني إلا بعد ان أقسمت لها باسم بوسيدون على اني سألقاها في القصر بعد قليل .

٧

لقد نهض ديدال لاستقبالي حين فاجأته في حجرته المظلمة مقبلاً على لوَيْحات من الرصاص أمامه قد انتثرت من حولها أدوات غريبة . وهو رجل ُطوَال ، لم تنحن قامته على تقدم سنه ، وهو يحمل لحية أطول من لحية مينوس وكانت سوداء ، على حين كانت لحية رادامونت شقراء ، أما لحية ديدال فكانت مفضضة . وجبهته العريضة تشقها أخاديد أفقية ، وحاجباه المختلطان يكادان يحجبان نظراته حين يخفض رأسه . وهو طويل الحديث عميق الصوت . ويفهم محدثه انه حين يصمت ، فإنما يفعل ذلك ليفكر .

وقد بدا فأثنى على حسن بلائي الذي وصلت أخباره إليه ، فيما قال ، على اعتزاله وانقطاعه عن الناس . وأضاف الى ذلك اني أبدو له أبله بعض الشيء ، وأنه لا يقدر حسن اصطناع السلاح ولا يرى ان قيمة الإنسان في قوة ذراعيه . قال :

– وقد رأيت قديماً سلفك هيرقل ، وكان أبله لا يستطيع ان يعطي شيئاً غير البطولة . وإنما أحببت منه ما أحب منك

هذا الاقدام على غاية في غير تردد ولا تراجع ، بـل هذا التهور الذي يدفعكما الى أمام ويظهركا على العدو بعد ان ينصركا على ما في نفوسنا جميعاً من الجبن . وكان هيرقل أشد منك مثابرة وأحرص منك على الإتقان ، حزيناً بعض الشيء ، ولا سيا بعد ان يتم عمله . أما ما أحب منك فهو هذا الابتهاج الذي يميزك من هيرقل . ويعجبني منك أنك لا تريد ان تعوق نفسك بالتفكير ؛ فالتفكير حظ قوم آخرين لا يعملون ولكنهم ينشئون للعاملين ما يدفعهم الى العمل .

أتعلم ان بيننا نسباً ، واني – لا تـُعِدْ ذلـك على مينوس ؛ فهو لا يعرف من ذلـك شيئاً – اني يوناني ؟ وقد أسفت حين اضطررت الى ترك أتيكا في أثر خصومة شجرت بيني وبين أخي تالوس [1] وكان مثـّالاً مثلي منافساً لي ، وكان قـد ظفر بإيثار الشعب لأنه كان يحتفظ للآلهة بشيء من المهابة الرهيبة ، يتوسل الى ذلك بإمساك تماثيلهم بمناطق ضيقة تأخذ أجسامهم من أسفلها فتمنعهم من الحركة على حين كنت أنا أطلـق أعضاءهم فأقربهم منا ، حتى تجدد بفضلي ذلك التجاور بـين الأولمب والأرض ، وكنت من جهة أخرى أحاول ان أتخذ العلم وسيلة الى ان يصبح الناس أشباهاً للآلهة .

فقد كنت في سنك ، حريصاً قبل كل شيء على ان أتعـلم ،

---

(١) تالوس : كان قريباً لديدال ومن تلاميذه .

وما أسرع ما استيقنت بأن قوة الإنسان لا تغني او لا تكاد تغني عنه شيئاً إلا إذا أعانتها الآلهة ، وان المثل الذي يقول : « ان الأداة أجدى من القوة » لم يكن مخطئاً . وما كنت لتقهر قطاع الطرق في البلوپونيز او في أتيكا لو لم تعنك على ذلك الأسلحة التي وعدك بها أبوك . وكذلك فكرت في أني لن أغني شيئاً إذا لم أجد ما أصطنع من أداة، وان سبيل ذلك هو ان أتقن الحساب والميكانيكا والهندسة ، كما يتقنها المصريون على الأقل ، فهم ينتفعون بها انتفاعاً عظيماً ، ثم فكرت في اني لن انتفع بهذه العلوم في الحياة التطبيقية إلا إذا تعرفت خصائص الأجسام ومميزاتها ، حتى الأجسام التي لا يظهر أننا في حاجة عاجلة الى استخدامها . فقد يستكشف في هذه الأجسام كثير من المزايا لم نكن نتوهمها من قبل ، شأنها في ذلك شأن الناس أنفسهم . وكذلك أخذ حظي من المعرفة يتسع ويقوى .

ثم أردت ان أعرف مهناً وصناعات وأقاليم ونباتات أخرى، فزرت بلاداً بعيدة تلمذت فيها لعلماء أجانب ، لم أفارق أحداً منهم إلا بعد ان استقصيت ما كان عنده من العلم . ولكني بقيت يونانياً حيثما ذهبت وحيثما أقمت، ومن هنا عنيت بك أيها النسيب لأنك يوناني .

فلما رجعت الى أقريطش تحدثت الى مينوس عن أسفاري ودراساتي ، ثم أفضيت اليه بشيء كنت أزمعته وسألته ان يعينني على تحقيقه ، فيقدم إليَّ ما يحتاج اليه من مال وأداة ،

وهو ان أبني وأنظم الى جانب قصره داراً تشبه اللابيرنت الذي رأيته وأعجبت بـه في مصر على شاطىء بحيرة موريس[1] على اختلاف في الرسم . في ذلك الوقت كان مينوس محرجـاً فقد ولدت له الملكة هذا الوحش الذي يسمى المينوتور ، وكان الملك يود لو استطاع ان يخفي هذا الكائن الغريب على أعين النـاس . فتقدم إليَّ في ان أقيم له بنـاء تحيط به حدائق غير مسورة ، ولكنه مع ذلك يمسك المينوتور في غير سجن دون ان يستطيع الخروج منه ، فأنفقت في ذلك ما كنت أملك من عناية ودراية.

وقد قدرت ان ليس هناك سجن يستطيع ان يمتنع على رغبة السجين في الفرار ، وان ليس هناك أسوار ولا خنادق تستعصي على الجراءة والعـزم ، فرأيت – وأرجو ان تحسن الفهم عني – ان الخير ان أقيم البناء وأنظمه بحيث لا يكون معجزاً لساكنة عن الهرب بل مانعاً له من التفكير في الهرب . فجمعت في هذا البناء ما يستجيب لشهوات الإنسان على اختلافها . وليست شهوات المينوتور كثيرة ولا شديدة الاختلاف ، ولكن كان علي ان أفكر في الناس جميعـاً وفي كل من يقضي عليه ان يدخل اللابيرنت . وكان يجب ايضاً بل قبل كل شيء ان أضعف إرادتهم . ومن أجل ذلك ركبت ألواناً من العقاقير يمزج فيما يدار عليهم من

(١) موريس : بحيرة كانت في الفيوم يقال الآن إن بحيرة قـارون من بقاياها .

نبيذ . ولكن هذا كله لم يكن كافياً ، فوجدت أكثر منه . وكنت قد لاحظت ان هناك ألواناً من النبات إذا ألقيت في النار أثارت وهي تحترق دخاناً مخدراً بعض الشيء ، فرأيت انها عظيمة النفع فيما كنت أحاول من الأمر ، وقد استجابت بالضبط لما دعوتها اليه ، فاتخذت مواقد لا تخمد نارها في ليل او نهار وغذوتها بهذه النباتات . والأبخرة التي تصّاعد منها لا تنيم الإرادة وحدها ، ولكنها تشيع سكراً خلاباً ، وتدفع الى فنون من الخطأ المغري ، والى ضروب من النشاط الفارغ تصدر عن رؤوس قد شملها الذهول وعبث بها الشراب . ضروب من النشاط الفارغ ، لأنها لا تنتهي الى شيء إلا ان يكون وهما ، ولا تثير إلا مناظر لا تثبت ، لا تنتهي الى غاية ولا تعتمد على منطق. وتأثير هذه الأبخرة ليس متفقاً بالقياس الى الذين يخضعون له جميعاً ، وإنما هو يختلف باختلافها وينشأ عنه اختلاط غريب يجعل لكل واحد لابيرنته الخاص . وقد كان اختلاط ابني إيكار فلسفياً يرقى الى ما بعد الطبيعة . أما أنا فأرى أبنية ضخمة وجمعاً من القصور المتراكمة تختلط فيها السلالم والدهاليز ... بحيث انتهى هذا كله في تخليط ابني الى مأزق تتبعه خطوة غامضة الى أمام . ولكن أشد من هذا كله غرابة ان هذه العطور إذا استنشقها الإنسان حيناً لم يستطع ان يستغني عنها ؛ لأن الجسم والعقل قد اتخذ منها متاعاً لا قيمة بإزائه للحياة الواقعة ولا رغبة في العودة إليها ، وإنما هو البقاء والبقاء المتصل في اللابيرنت. ولما كنت أعلم أنك تريد ان تنفذ إليه لتصارع فيه المينوتور فقد

أردت ان أظهرك على جلية الأمر . وما أطلت عليك الحديث إلا لاحذّرك ؛ فلن تستطيع ان تخرج منه وحدك بل يجب ان تصحبك أريان . ولكنها يجب ان تبقى على عتبة الدار بحيث لا تشم هذا الأرَج . فيجب ان تحتفظ بعقلها وصوابهـا في الوقت الذي تخضع أنت فيه للسكر . ولكن اجتهد في ان تملك أمرك حتى حين يأخذك السكر ، هذا هو المهم. وقد لا تعينك إرادتك على ذلك ، فقد قلت : ان هذا الدخان يضعفها ، فقد خطر لي ان أجمع بينك وبين أريان بخيط يمثل الواجب تمثيلاً مُحَسَّاً . هذا الخيط يمكنك بل يضطرك الى ان تعود إليها بعد ان تكون قد بعدت عنها . واحرص على كل حال على ألا تقطعه مهما يحط بك من الظروف ، ومهما تلح عليك المغريات ، ومهما تدفعك إليه شجاعتك من مغامرة . عد إليها وإلا ذهب عنك كل شيء ، بل ذهب عنك الخير كله . سيكون هذا الخيط وصل ما بينك وبين الماضي . فعد إليه ، عد الى نفسك . فلا شيء ينشأ من لا شيء ، ولن يعتمد مستقبل أمرك إلا على ماضيك الذي كنت فيه وحاضرك الذي أنت عليه .

وقد كنت خليقاً ان أحدثك أقل مما حدثتك لو أني عُنيت بك أقل مما أعنى بك في حقيقة الأمر . ولكني أريد قبـل ان تستقبل مصيرك ان تسمع لحديث ابني فستحقق حـــين تسمعه مقدار الخطر الذي أنت مقدم عليه ، وان كان هو قد استطاع

بفضلي ان يفلت من فتنة اللابيرنت ولكن عقله على ذلك قد ظل خاضعاً لسحر هذه الفتنة .

ثم اتجه الى باب منخفض وأزاح مـا كان يغطيه من أستار وقال في صوت رفيـع :

– أي إيكار ، أي بُنَيّ العزيز ، أقبل وأعرض علينا مـا يساورك من القلق ، بل إمض كما تفعل في أثنـاء وحدتك في حديثك الى نفسك دون ان تحفـل بي ولا بضيفي . هبنـا غير حاضرين .

٨

رأيت فتى يقبل وهو يوشك ان يكون في سني وقد ظهر في هذا الضوء الضئيل رائع الجمال . وكان شعره الأشقر الطويل يتدلى خصلاً على كتفيه . وكان لحظه الثابت يظهر كأنه لا يقف عند الأشياء. وكان عارياً الى موضع النطاق قد شد حول خصره منطقة ضيقة من المعدن . وقد ظهر لي ان إزاراً واسعاً من نسيج أسود ومن جلد يأخذ من أعلى وركيه وقد جمع طرفاه بعقدة ضخمة . وقد وقفت عيناي على حذاءين من جلد أبيض كانا يشيران الى انه يتأهب للخروج، ولكن عقله وحده كان يسعى، ولم يكن يظهر عليه أنه يرانا . وكان يقول ماضياً فيما كان يدير عقله من حديث :

– أيهما بدء الوجود : الرجل أم المرأة ؟ أيمكن ان يكون الخالد مؤنثاً ؟ أيتها الصور الكثيرة أي أم هائلة أخرجتك من أحشائها ؟ وأي مبدأ والد ألقاك في هذه الأحشاء ؟ يا لها تثنية غير معقولة ، وإذن فالإله هو الطفل . ان عقلي يرفض ان ينقسم الإله . فإن قبول الانقسام معناه الصراع . كل ما للإله فهو

للحرب . ليست هناك آلهة وإنما هو إله واحد . ان تسلط الإله هو السلام ، كل شيء يأوي ويأتلف في الإله الواحد .

ثم سكت حيناً واستأنف قائلاً :

– لأجل ان نحقق الإله يجب على الإنسان ان ينحاز وان يضيق ؛ فليس الإله إلا متفرقاً . ان الآلهة منقسمون . الإله الواحد لا حد له . الآلهة الكثيرون محليون .

ثم عاد الى الصمت واستأنف الحديث في صوت قلق ولكن متقطع :

– ولكن ما سر هذا كله أيها الإله الواضح ؟ ما أصل هذا العناء ؟ ما أصل هذا الجهد ؟ ونحو ماذا ؟ ما علة الوجود ؟ وما علة البحث عن علة لكل شيء ؟ كيف نتجه ؟ وأين نقف ؟ متى نستطيع ان نقول لقد انتهى كل شيء آمين ! كيف الوصول الى الإله حين نبدأ من الإنسان ؟ وإذا بدأت من الإله فكيف أصل الى نفسي ؟ ولكن أليس من الممكن ان يكون الإله من صنع الناس كما ان الناس من صنع الإله ؟ في مفترق الطريق هذا ، في قلب هذا الصليب يريد عقلي ان يثبت .

وكان وهو يتحدث على هذا النحو يتصبب عرقاً وتظهر عروق جبهته منتفخة ، او ظهر لي ذلك على الأقل ، فلم أكن أستطيع ان أتبينه في الضوء الضئيل ، ولكني كنت أسمعه يلهث كمن بذل جهداً عظيماً .

ثم سكت لحظة واستأنف قائلاً :

— لست أدري أين يبدأ الإله وأنا أقل علماً بأين ينتهي ! بل لعلي أحسن التعبير عما في نفسي ان قلت ان بداءته لا تنتهي . آه ! لقد سكرت بإذَنْ وبلئن وبما دام ! وبهذا التخليط والاستنتاج . لن أصل الى قياس أجمل من الذي وصلت إليه أول الأمر . فإذا كنت قد وضعت فيه الإله فإني واجده . ولا أجده إلا أن وضعته . لقد جبت طرق المنطق كلها في اتجاهها الأفقي حتى تعبت من الأسفار . إني لأزحف ، إني لأريد ان أصعد ، ان أخلص من ظلي ، من مادتي القذرة ، ان أتخفف من ثقل ماضيّ ، إن أفق السماء ليدعوني . يا للشعر ! يخيل إليّ ان نفساً علوياً يجذبني . أي عقل الانسان : لأصعدن الى حيث تستطيع ان ترقى . ان أبي الخبير في الرياضة سيهيء لي الوسيلة الى ذلك . سأذهب وحدي . ان لي من الجراءة ما يمكنني من هذا . سأؤدي الثمن . لا سبيل الى الخروج من هذا . أيها العقل الرائع الذي طال تخبطه في المشكلات ستندفع في طريق غير معبدة . لست أدري ما هذا السحر الذي يدعوني ، ولكني أعلم ان ليست هناك إلا غاية واحدة هي الإله .

ثم تركنا راجعاً أدراجه حتى بلغ الأستار فأزالها واستخفى من دونها وردها كما كانت . قال ديدال :

— يا له من طفل بائس عزيز ! لم يكن يدري كيف يفلت من اللابيرنت ؛ لأنه لم يكن يعلم ان اللابيرنت إنما هو في نفسه ،

فصنعت له مستجيباً لدعائه جناحين يتيحان له ان يطير . كان يرى ان لا طريق له إلا السماء بعد ان أخذت عليه طرق الأرض. وكنت أعرف فيه نزعة صوفية ، فلم تدهشني رغبته . رغبته لم تبلغ غايتها كما رأيت ؛ فعلى رغم تحذيري أراد ان يصعد أكثر مما ينبغي ! أسرف في تقدير قوته فهوى الى البحر . وفيه لقي الموت . صحت دهشاً :

— كيف يكون ذلك ؟ لقد رأيته الآن حياً !

أجاب :

— نعم ! لقد رأيته الآن وخيِّل إليك انه حي ولكنه قد مات . وهنا أخشى يا ثيسيوس ألا يستطيع عقلك ، على أنه يوناني دقيق متقبل للحقائق كلها ، ان يتبعني ؛ فأنا نفسي قد احتجت الى وقت طويل لأفهم ما يأتي وأطمئن اليه . كل واحد منا لا يحيا حياته الخاصة المقسومة له إذا تبين ان ميزانه ثقيل حين توزن النفوس . فهو في حياته الانسانية ينمو ويتم ما كتب له ثم يموت . ولكن الزمن نفسه لا يوجد بالقياس الى حياة أخرى، وهي الحياة الصحيحة الخالدة التي ترتسم فيها كل حركة بمعناها الدقيق الذي تدل عليه . فقد كان إيكار قبل ان يولد ، وهو الآن بعد ان مات، صورة القلق الإنساني والبحث والطموح والشعر ، وهو قد تقمص هذا كله أثناء حياته القصيرة . أدى مهمته كما كان ينبغي ان يؤديها ، ولكن أمره لا يقف عنده

وحده ، كذلك شأن الأبطال جميعاً ؛ فإن أعمالهم تبقى ثم يتناولها الشعر والفن فتصبح رموزاً خالدة . ومن هنا ظل أوريون [١] الصائد يتتبع في حقول البرواق في دار الموتى تلك الوحوش التي قتلها في حياته على حين صارت صورته نجماً في السماء . ومن هنا ظل تنتال [٢] ظمئاً الى آخر الدهر ؛ وظل سيزيف [٣] يرفع نحو القمة التي لا تُنال ، صخرته الثقيلة التي لا تكاد تبلغ القمة حتى تهوي ، تصور بذلك ذلك الهمّ

---

(١) أوريون : مارد هائل كان مولعاً بالصيد ودفعه الغرور الى مباراة إلهة الصيد أرتميس التي نقمت منه فسلطت عليه عقرباً لدغته فمات . ثم جعله الآلهة نجماً من نجوم السماء .

(٢) تنتال : ملك من ملوك ليديا أسرف على نفسه في الغرور وسخر من الآلهة ، فقدم إليهم في بعض الولائم لحم ابنه . وقد غضب عليه ذوس فأرسله الى الجحيم وقضى عليه ان يشتهي دائماً ولا يجد لشهوته شفاء على قرب الشفاء منه . فالثمر في متناول يده ولكنه لا يبلغه، والماء قريب من شفتيه ولكنه لا يذوقه .

(٣) سيزيف : بطل من أبطال اليونان أنشأ مدينة كورنت، وكان حكيماً ماكراً داهية عاند الآلهة وسخر منهم وقيد الموت حتى ضج منه الآلهة أنفسهم ، ثم قهروه آخر الأمر وقضوا عليه ان ينفق الدهر كله في دفع صخرة من أسفل الجبل الى قمته. ولكن صخرته لا تنفك تهوي الى القاع كلما أوشكت ان تبلغ القمة .

الملحّ الذي لزم سيزيف حين كان ملكاً لكورنت . فقد ينبغي ان تعلم ان ليس في دار الموتى عقوبة إلا استئناف الأعمال التي لم تتم .

الأمر في ذلك كالأمر في أنواع الحيوان كلها، تموت الأشخاص دون ان يؤثر موتها في بقاء النوع ونموه ؛ فليس بين الحيوان شخص ، على حين ان الفرد وحده هو صاحب الخطر في النوع الإنساني . ومن هنا تستطيع ان تقول ان مينوس يحيا الآن في مدينته كنوسوس حياة هي مقدمة لحياته القضائية في الدار الآخرة كما ان پاسيفاييه وأريان تستجيبان لما كتب عليهما القضاء. وأنت نفسك يا ثيسيوس على ما يظهر وما تعتقد من استخفافك بكل شيء ، لن تفلت كما لم يفلت هيرقل وجازون[1] وبرسيه[2] من هذا القضاء الذي فرض على كل واحد منكم نفسه ، ورسم له طريقه . ويجب ان تعلم — فقد أتيح لي ان استنبط المستقبل من الحاضر — ان أمامك أعمالاً جليلة يجب ان تتمها ، وهي من نوع آخر يخالف ما قدمت من عمل فيما مضى . أعمال

---

(١) جازون : بطل من أبطال اليونان غامر مع جماعة من أترابه في طلب الجزة الذهبية وقتل حارسها وهو تنين عظيم الشر كان يلفظ النار من فمه .

(٢) برسيه : بطل من أبطال اليونان ولدته دنائية حين أحبها زوس وتمثل لها مطراً من ذهب .

ستصغر أمامها مآثرك التي أتممتها الى الآن . عليك ان تنشىء أثينا وان تقيم فيها سلطان العقل .

فلا تضيّع وقتك في اللابيرنت ولا تضيّعه بين ذراعي أريان حين تخرج من اللابيرنت ظافراً . إمض لطيتك وأنظر الى الكسل على أنه خيانة، وخذ نفسك بألا تلتمس الراحة إلا حين تتم ما كتب عليك وحين تأوى الى الموت . وكذلك تستطيع بعد هذا الموت الظاهر ان تستأنف حياة متصلة متجددة فيما يدين الناس لك به من جميل . إمض لطيتك ، إمض أمامك . إمض في طريقك أيها الفتى الشجاع مجمع المدن .

واسمع لي الآن يا ثيسيوس واحفظ ما أقول لك . ستنتصر على المينوتور في أكبر الظن دون كثير عناء ؛ فليس هو من البأس بحيث يقال . لقد قيل إنه يعيش على لحم الإنسان ، ولكن متى رأيت الثيرة تعيش على شيء آخر غير ما تنبت المروج ؟ ان دخول اللابيرنت يسير ، ولكن ليس أشد عسراً من الخروج منه . لا سبيل الى ان يجد الإنسان نفسه فيه إلا بعد ان يضل أول الأمر . ولن تستطيع ان ترجع أدراجك فليس للخطو فيه أثر ، فيجب إذن ان تصل نفسك بأريان ، بهذا الخيط الذي أعددت لك منه قدراً حسناً ، فخذه معك وأرسله كلما تقدمت وكلما انتهت خصلة منه فصِلها بخصلة أخرى بحيث لا ينقطع ، فإذا أردت الرجوع فأدِرْ هذا الخيط قليلاً قليلاً حتى تبلغ أوله

الذي أمسكت به أريان . لست أدري لماذا ألحّ الى هذا الحد ، فكل هذا يسير جدّاً ، إنما العسير ان تحتفظ الى آخر خيـط بالعزم الصادق على ان تعود . وسيصطلح الأرج ومـا يبعث في نفسك من نسيان وحب الاستطلاع لها وأشياء أخرى كثيرة على إضعاف هذا العزم . لقد قلت لك هذا آنفاً ، ولم يبق لديّ شيء آخر . هاك الخيط . وداعاً .

تركت ديدال ولحقت بأريان .

٩

وهذا الخيط هو الذي أثار أول خصومة بين أريان وبيني ؛ فقد أرادت ان أدفعه اليها وان تحتفظ به في حجرها زاعمة ان من عمل النساء جمع الخيط وتفريقه ، وأنها في ذلك مـــاهرة صَنَاع ، ولكنها في حقيقة الأمر كانت تريد ان تسيطر على مصيري ، وهــذا هو الشيء الذي لم أكن أرضاه مهما تكن الظروف . وكنت أقدر أيضاً أنها ستحرص على استبقائي فلا ترسل الخيط إلا في بطء ، وقد تشده إليها ان أرادت فتحول بيني وبين المضي الى غايتي كما أريد . وقد أصررت على الامتناع رغم سلاحها الأخير وهو الدموع ؛ لأني كنت أعلم ان من شأن النساء إذا نزلت لهن عن أيسر الأمر ألا يرضين إلا بأكثره . أسلم لهن الأصبع الصغرى فستتبعها اليـــد ثم الذراع ثم سائر الجسم .

ولم يكن هذا الخيط متخذاً من الكتان ولا من الصوف ، وإنما اتخذه ديدال من مادة صلبة لم يستطع سيفي حين جرَّبته ان يصنع فيها شيئاً. وقد تركت سيفي عند أريان مصمماً، رغم

ما بيّنه لي دايدال من ان الأداة تمنح الإنسان قوة الى قوة ، على ان أصرع المينوتور بقوة ذراعيّ وحدها . فلما بلغت مدخل اللابيرنت وهو رواق تزينه الفأس المثناة وهي علامة شائعة في الجزيرة ، ألححت على أريان في ان تلزمه ولا تفارقه ، وقد حرِصتُ على ان تدير الخيط حول معصمي بعقدة زعمت أنها عقدة الزواج، ثم ألصقت شفتيها بشفتي وقتاً حسبته لن ينقضي. فقد كنت حريصاً على ان أتقدم .

وكان رفاقي الثلاثة عشر من الفتيات والفتيان وفيهم پيريتوس قد سبقوني. وقد وجدتهم في الحجرة الأولى وقد أذهلهم الأرج. وقد أنسيت ان أقول ان ديدال قد أعطاني مع الخيط قطعة من النسيج قد غمسها في مادة مضادة لهذا الطيب ، وألحّ عليّ في ان أكم بها فمي دائماً ؛ وان أريان كانت قد استأثرت بهذه القطعة أيضاً عند الرواق . وبفضل هذه الكمامة استطعت ان احتفظ بصوابي وإرادتي ، ولكني كنت أختنق شيئاً ، فقد تعودت ، كما قلت ، ألا أجد الحياة الكاملة إلا في الهواء الطلق ، فكان هذا الهواء المغلق يضايقني بعض الشيء .

وتقدمت مرسلاً الخيط حتى بلغت الحجرة الثانية، فإذا هي أشد إظلاماً، ثم بلغت أخرى أشد إظلاماً ثم انتهيت الى أخرى لم أكن أتقدم فيها إلا متحسساً، ولكن يدي وهي تتبع الحائط لقيت مفتاح باب أدرته فانفتح لي على ضوء ساطع، وإذا أنا أبلغ حديقة. وأرى أمامي على أرض مبسوطة قد نسقت فيها شقائق

النعمان والخزامى والنسرين والقرنفل ، المينوتور مستلقيا مسترخيا. وكان نائماً من حسن حظي . وكنت خليقاً ان أتعجل وان أستفيد من نومه ، ولكن هذا النوم نفسه كان يقفني ، وكان الوحش جميلاً وكان أمره كأمر السنتور [1] قد اجتمعت له والتأمت فيه ملامح من الإنسان والحيوان ، وكان شاباً ، وكان شبابه يضيف الى جماله ظرفاً لم أكن أحققه ، وكان هذا كله سلاحاً أقوى بالقياس إليّ من القوة ، فلم يكن لي بد من ان أستحضر شجاعتي كلها . فلا سبيل الى الجهاد المنتج إلا مع شيء من البغض . ولم أكن أستطيع ان أبغضه ، بل لبثت وقتاً أمعن النظر اليه ، ولكنه فتح إحدى عينيه فتبينت أنه أبله، ورأيت ان قد آن الوقت للإقدام .

ولست أستطيع ان أذكر ما صنعت ولا ما كان على وجه التحقيق ؛ فقد كانت الكمامة تأخذ عليّ التنفس ، ولكني مع ذلك لم أفلت من تأثير الأرج حتى أصابني من ذلك ضعف في الذاكرة . فإذا كنت قد انتصرت على المينوتور فإني لم أحتفظ من ذلك إلا بأثر مختلط لا يخلو من لذة . ولست أبيح لنفسي ان اخترع ولا ان اتكثر ، ولكني أذكر كذلك ان جمال الحديقة كاد يلهيني عن نفسي، ولم آخذ في إدارة الخيط بعد ان انتصرت

---

(١) سنتور : كائنات غريبة قوية كانت لها ملامح الانسان والفرس وكانت بينها وبين الآلهة والأبطال صلات وخطوب .

على المينوتور لأجد أصحابي في الحجرة الأولى إلا أسفاً . وقد رأيتهم حول مائدة قد جمعت عليها ألوان من الطعام لا أدري كيف جاءت ولا من جاء بها ، وهم يزدردون ويعبّون ويعبث بعضهم بأجسام بعض ويضحكون كأنهم المجانين او البله . فلما هممت ان أخرجهم أبوْا عليّ وأعلنوا إليّ أنهم راضون حيث هم ، وأنهم لا يريدون خروجاً . وقد ألححت عليهم وأنبأتهم اني أحمل إليهم الخلاص وإذا هم يتصايحون : الخلاص من ماذا ! ثم أخذوا يسبونني ، وقد أحزنني هذا كثيراً لمكان پيريتوس ، فقد كان يتميزني في مشقة ويعيب الشجاعة ويسخر من شجاعته هو ، ويعلن في غير تحفظ انه لن يفارق لذته الحاضرة في سبيل المجد مهما يكن . ولم أكن استطيع ان ألومه ؛ فقد كنت أعلم اني لولا احتياط ديدال لتورّطت في مثل ما تورّطوا فيه . ولم استطع ان أخرجهم إلا حين اصطنعت معهم العنف ، وأعملت فيهم الوكز واللكز . وقد كانوا مثقلين بكثرة ما أكلوا وشربوا وسكروا ، فلم يستطيعوا ان يقاوموا .

فلما خرجوا من اللابيرنت احتاجوا الى وقت أي وقت وجهد أي جهد ليستردوا صوابهم ويثوبوا الى أنفسهم . على انهم لم يفعلوا ذلك إلا محزونين . وقد حدثوني فيما بعد انهم كانوا يرون انهم يهبطون من قمة عالية يشع عليها النعيم الى قرارة وادٍ

ضيق مظلم ضئيل؛ لأن كل واحد منهم قد عاد الى سجنه الخاص، وهو شخصه المحدود الذي لا إفلات منه . ومع ذلك فقد جعل پيريتوس بعد قليل يحس الندم على هذه الصنعة العابرة التي تورط فيها ، ويؤكد انه سيشتري نفسه أمام نفسه وأمامي بكثير من حسن البلاء . ومـــا أسرع مـا أتيحت له الفرصة ليثبت إخلاصه لي .

١٠

لم أكن أخفي عليه شيئاً ؛ فقـد كان يعرف وجدي بأريان ووجدي عليها . بل لم أكن أخفي عليه اني كنت متيماً بفيدر وإن لم تكن قد تجاوزت الصبا بعدُ . كانت في ذلك الوقت تكثر من اصطناع أرجوحة قد علقت الى نخلتين ، وكنت إذا رأيتها تترجح على هذا النحو وتعبث الريح بثوبها أخذني شيء يشبه الدوار . ولكني كنت أدير رأسي مسرعاً وأخفي ميلي متحفظاً إذا ظهرت أريان أخشى ان تثور غيرة الأخت الكبرى. ومن الشر ان يقصر الانسان في إرضاء مـــا يساور نفسه من رغبة ؛ ولكن لم يكن بد من اصطناع الحيلة والمكر لتحقيق ما كان يدور في خلدي من خطف هذه الصبية . هنالك ابتكر پيريتوس وسيلة الى تحقيق مأربي ، دلت على ما كان يمتاز به من سعة الحيلة . وكانت إقامتنا في الجزيرة تطول وإن لم أكن أفكر كما لم تكن أريان تفكر إلا في السفر ، ولكن الشيء الذي كانت أريان تجهله هو اني كنت مصمماً على ألا أترك الجزيرة إلا ومعي فيدر . وكان پيريتوس يعلم ذلك . وهاك الحيلة التي أعانني بها :

كان أكثر حرية مني ؛ فقد كانت أريان تأخـــذ عليّ كل طريق ، وكان من أجل ذلك قد استطـاع ان يدرس شؤون الجزيرة ويعرف من عاداتها ما كنت أجهل – قال لي ذات صباح :

– أظن اني قد بلغت الغاية. تعلم ان هذين الحكيمين مينوس ورادامونت قد نظما أخلاق الجزيرة وسيرة أهلها ، ونظما بنوع خاص شؤون هذا الحب البغيض الذي يعطف أهل الجزيرة على الغلمان كما ترى ذلك في ثقافتهم ، الى حد ان كل فتى قد بلغ الحلم ، ولم يكن له خليـل من الذين يكبرونه في السن يتعرض لكثير من الازدراء والضعة ؛ لأنه ان كان رائع الجمال فيجب ان يكون فيه عيب يتصل بعقله او جسمه ويصرف عنه الخلان. وقد أفضى إليّ جلوكوس أصغر أبناء مينوس والذي يشبه فيدر حتى كأنه ضريبها بما يثير ذلك في نفسه من همّ . وقد حاولت ان أغريه بأن لقب الأمارة الذي يحمله قد أرهب الناس فلم يسم إليه منهم أحد ، فكان يجيبني بـأن هذا ممكن ، ولكنه يحزن له ؛ ويجب ان يعلم الناس ان هذا يحزن مينوس نفسه ؛ لأن مينوس لا يحفل عادة بتفاوت الطبقات ولا باختلاف الدرجات، ومع ذلك فقد يسرّه ان يرى أميراً ممتازاً مثلك يُعنى بابنه . وقد قدرت ان أريان التي تغار من أختها أشد الغيرة لن تغـار من أخيها ؛ فلم يرَ الناس امرأة تغار من غلام . وعلى كل حـال

فسترى ان من غير اللائق ان تظهر شيئاً من الريبة ، فتستطيع ان تقدم في غير خوف .

صحت به :

– وهل تظن ان الخوف يقضي عن شيء ، ولكني وإن كنت يونانياً لا أسيغ مثل هذا الحب لغلام مهما يكن حظه من الجمال والظرف ، أختلف في ذلك عن هيرقل الذي أترك له في غير أسف خليله هيلاس[1] . ومهما يكن الشبه بين صاحبك جلوكوس وبين فيدر فإني أريدها هي لا هو .

قال :

– لم تفهم عني، فلست أقترح عليك ان تستصحب جلوكوس مكان فيدر ، وإنما أعرض عليك ان تستصحب فيدر مكان جلوكوس ، وان تخدع أريان وتخدع الناس جميعاً فتخيل إليهم أنك ستستصحب الفتى . اسمع وأفهم عني ، ان من العادات التي أقرها مينوس نفسه في الجزيرة ان يستصحب الخليل فتاه ليعيش معه في داره شهرين كاملين ، ثم يعلن الغلام بعد ذلك الى الناس انه راض عن خليله وعن سيرته معه . واستصحابك لجلوكوس

---

(١) هيلاس : كان صديقاً شاباً لهرقل رافقه في بعض مغامراته ومات في إحدى هذه المغامرات ، فلم يتعز عنه هرقل .

هذا الموهوم معناه ان تحمله الى هذه السفينة التي جاءت بنا من بلاد اليونان ، فإذا اجتمعنا في السفينة ومعنا فيدر مستخفية ومعنا أريان التي تحرص على مرافقتنا فأبحر بالسفينة مسرعاً حتى تبعد عن الساحل . ولأهل أقريطش سفن كثيرة ولكنها أبطأ جرياً من سفننا ، فإذا طلبونا فمن اليسير ان نفوتهم . تحدث في هذا الى مينوس وثق بأنه سيرضى عنه بشرط ان تقنعه بأنك ستستصحب جلوكوس لا فيدر ، فلن يحلم بخليل مؤدب لجلوكوس خيراً منك . ولكن قل لي أواثق أنت بأن فيدر راضية بصحبتك ؟

— لست أدري الى الآن ؛ فإن أريان مَعنيّة بألا أخلو الى أختها بحيث لم أستطع ان أوذنها بذلك ... ولكني واثق بأنها لن تتردد في صحبتي حين تعلم اني أوثرها على أختها .

وكان يجب قبل كل شيء ان أهيىء أريان نفسها لهذه الخطة ، فأفضيت إليها بالأمر مخادعاً لما دبرنا .

فلم تكد تسمع لي حتى صاحت :

— يا لها خطة رائعة ! كم أنا سعيدة بالسفر مع أخي الصغير . إنك لا تدري الى أي حد أحبه وأوثره لظرفه وخفته . إنا متفقان دائماً . وعلى ما بيننا من اختلاف السن ، فهو آثر الرفاق إليّ ، ليس شيء أجدر ان يوسع أفقه ويفتح عقله من إقامة في

بلد أجنبي . سيتقن اليونانية في أثينـا ، وهو يتكلمها على نحو لا بأس به ، ولكنه يصطنع لهجة أجنبية سيصلحهـا في وقت قصير ، وستكون له قدوة صالحة . وددت لو يحرص على ان يشبهك .

وقـد كنت أترك هذه البائسة تقول غير عالمة بما كان يخبأ لها .

وكان من الواجب أيضاً ان ننبه جلوكوس لنتقي كل خطر . وقد نهض پيريتوس بهذه المهمة ، وقد أنبأني بعد ذلك بأن الفتى أحس شيئاً كثيراً من خيبة الأمل ؛ فقد كان يؤثر بالطبع ان يسافر هو ، ولم يكن بد من إثارة حبة لأخته وعطفه عليهـا ليقبـل الاشتراك في هذا التدبير . وكان يجب ان ننبـه فيدر أيضاً ؛ فقد كانت خليقة ان تصيح إذا اختطفت قسراً او مكراً . ولكن پيريتوس اعتمد على ان الصبيين سيجدان في هذا التدبير ما يلهيهما ، فسيعبث جلوكوس بأبويه ، وستعبث فيدر بأختها .

وإذن فقد دخلت فيدر في الزي المألوف لجلوكوس ، وكانت قامتاهما متعادلتين . فلما أخفت شعرها وسترت أسفل وجهها لم يكن من الممكن ان تفطن أريان للخدعة .

ومن المحقق اني كنت آلم لاضطراري الى خيانة مينوس الذي

بالغ في الإحسان إليّ . وقد تحدث إليّ بما كان ينتظر من الأثر الحسن الذي ستتركه صحبتي في نفس ابنه وقــد كنت ضيفه ، فقد خفرت ذمة مضيّفي ولكني لم أحفل ، وليس من شأني ان أحفـــل ، بهذا التردد الذي يبقيه وخز الضمير ، وكنت أوثر إرضاء رغباتي على الاعتراف بالجميل وعلى مراعاة اللياقة ، فكل شيء مباح ولا بد مما ليس منه بد .

وقد سبقتنا أريان الى السفينة لتهيء لنفسها فيها مكاناً ملائماً. ولم نكن ننتظر إلا فيدر لنسلم سُفينتنا الى الهرب . لم نختطفها حين أغلق الليل كما دبرنا أول الأمر ، بل بعد عشاء الأسرة التي حرصت على ان تشارك فيه ، ثم اعتلت بما ألفت من ترك الأسرة في أثر العشاء مقدرة ان أحداً لن يفطن لسفرها قبل ان يشرق النهـــار . وكذلك مضى كل شيء على ما كنا نهوى ، وكذلك هبطت الى أتيكا مع فيدر بعد أيام . وبعد ان أنزلت أختهـــا الجميلة المتعبة أريان في جزيرة ناكسوس [1] .

وقد عرفت حين وصلت أرضنا ان إيجيه أبي لم يكد يرى القلاع السود التي أهملت ان أضع مكانها القلاع البيض كما اتفقنا حتى ألقى نفسه في البحر ؛ وقد أشرت الى ذلك آنفاً ولست أحب ان أعود اليه . وإنما أضيف أني رأيت فيما يرى النائم أثناء

---

(١) ناكسوس : جزيرة في بحر إيجيه ترك فيهـــا ثيسيوس صاحبته أريان .

الليلة الأخيرة اني أصبحت ملكاً لأتيكا ... ومهما يكن من شيء فقد كان هذا اليوم ، يوم عيد للشعب ولي؛ لأننا عدنا فيه سالمين، ولأني ارتقيت الى العرش ، ويوم حداد لموت أبي . ومن أجل ذلك أنشأت من الفور حفلات تتبادل فيها الجوقات أغاني الحزن وأغاني الابتهاج . وحرصت مع أصحابي الذين نجوا ان نشارك بالرقص في هذا الحفل . حزن وابتهاج ! كان من الملائم ان نمسك الشعب على هاتين العاطفتين المتناقضتين .

١١

وقد لامني اللائمون بعد ذلك في سيرتي مع أريان ، قالوا اني سرت معها سيرة الجبن ، ولم يكن يجمل بي ان أدعها ، وان أدعها في جزيرة بنوع خاص . سخف ؛ فقد كنت حريصاً على ان أجعل البحر بينها وبيني ؛ فقد كانت تتبعني كما يتتبع الصائد صيده في إلحاح . ولما استكشفت ما دبرت من مكر ، وعرفت أختها في زي جلوكوس ثار ثائرها ، وجعلت تدفع صيحات موقعة ، ووصفتني بالخيانة . فلما أثقلت عليّ واضطرتني الى ان أنبئها بأني سأنزلها في أول جزيرة تدفعنا إليها الريح التي أخذت تثور ، أنذرتني بقصيدة ستنشئها تصور فيها هذا الهجر الوضيع . أجبتها على الفور أنها لن تستطيع ان تصنع خيراً من هذه القصيدة التي ستكون رائعة من غير شك ان جاز ان أحكم بما كنت أرى من ثورتها ولهجتها الغنائية الصادقة ، وستكون هذه القصيدة معزية تسليها عن حزنها . ولكن كان كل ما كنت أقول لها يزيد ثورتها حدة والتهاباً . وكذلك شأن النساء حين يراد ردهن الى العقل . أما أنا فأسلم نفسي دائماً لغريزة تدفعني السذاجة الى ان أثق بها .

فقد دفعتنا الريح الى جزيرة ناكسوس فتركتها هنــــاك ، وعلمت فيما بعد ان ديونيزوس لحق بها واتخذها لنفسه زوجــاً . ولعل معنى ذلك انها تسلت بالخمر . ويقــال ان الإله قد أهدى إليها يوم الزفاف تاجاً من صنع ايفايستوس[1] ، وان هذا التاج يتلألأ الآن بين نجوم السماء ، وإن ذوس قد استقبلها في الأولمب ووهب لها الخلود . ويقال إنها شبهت بأفروديت . وقد تركت هذا كله يشاع ، بل حرصت على أن أسكت الألسنة المتهمة لي ، فبذلت ما استطعت لتأليهها ، واستحدثت لهــا عبادة خاصة تكلّفت أن أشارك فيها بالرقص. ومن الحق أنها ما كانت لتظفر بكل هذا الامتياز لو لم تلق مني هذا الهجران .

وهناك أحداث منحولة غنيت بها الأساطير : كاختطاف هيلانة[2] وهبوط پيريتوس الى دار الموتى ، واستحيــــاء پروزرپين[3] . فلم أحاول ان أكذب ما أشيع حول أريان من

---

(١) ايفايستوس : إله الحديد والنار وهو ابن ذوس أحفظ أباه ذات يوم فقذف به من أعلى الأولمب إلى الأرض فهو يعرج دائماً .

(٢) هيلانة : بنت ذوس ولدتها له ليدا وقد فتن بها أبطال اليونان فخطفها تيسيوس ثم ردها أخواها ، ولكن باريس خطفها بعد ذلك الى طروادة . فكانت سبباً في الحرب المشهورة .

(٣) پروزرپين : بنت ديمتر إلهة الأرض والخصب خطفها كبير آلهة الجحيم واتخذها لنفسه زوجاً .

مثل هذه الأساطير رغبــة في ان يبعد صوتي ويعظم خطري . بل لعلي أضفت الى هذه الأساطير أساطير أخرى لأمسك الشعب على الإيمان ، وأمنعه من هذا الاستعداد للسخر من كل شيء ، كما يظهر واضحاً عند أهل أتيكا . فقد يكون من الخير ان يتحرر الشعب ، ولكن بشرط ألا يتخذ السخرية وسيـــلة الى هذا التحرر .

والحق اني منذ عدت الى أثينا احتفظت بالوفاء لفيدر . فقد تزوجت من المرأة ومن المدينة جميعاً . كنت زوجاً ، وانتقل إليّ الملك من طريق الوراثة . وكنت أقول لنفسي : لقد انتهى عصر المغامرات ؛ فليس المهم الآن ان أفتح ، وإنمـــا المهم ان أملك ..

ولم يكن الملك شيئاً يسيراً ؛ فلم تكد أثينا توجد في ذلـــك الوقت ، وإنما كانت أتيكا مجموعة من قرى صغيرة ينافس بعضها بعضاً في التفوق ، وينشأ عن هذا التنافس ألوان من الخصومات والغارات والصراع الذي لا ينتهي ، فكان يجب ان أوحد هذا كله ، وان أركز السلطان ؛ وهو شيء لم أظفر به إلا بعد مشقة وجهد بذلت في سبيله القوة والحيلة .

وكان أبي إيجيه يرى ان يثبت سلطانه باستبقاء الخلاف بين القرى . وقد لاحظت ان هناءة المواطنين يضيعها الاختلاف ، وتبينت ان أكثر الشر إنما يأتي من تفاوت الثروة ، وحرص كل

فرد على ان ينمي ثروته . ولم أكن أنا حريصاً على الثراء ، وإنما كنت معنياً بالمصلحة العامة بمقدار عنايتي بمصلحتي ، بل أكثر من عنايتي بمصلحتي ، فقد أعطيت القدوة حين أخذت نفسي بحياة بسيطة ، ثم قسمت الأرض قسمة عدلاً بين المواطنين ، فألغيت التنافس والتفوق وما ينشأ عنهما من الآثام . وكانت خطة قاسية أرضت الفقراء من غير شك وهم كثرة الناس ، ولكنها أسخطت الأغنياء لأني نزعت منهم بعض ما كانوا يملكون . وكان الأغنياء قليلين ولكنهم كانوا مهرة. وقد جمعت أجلهم خطراً وقلت لهم:

– إني لا أحفل بشيء كما أحفل بالقيمة الفردية ، ولا ألتفت الى غيرها من المزايا . لقد عرفتم كيف تثرون بما لكم من مهارة ودراية بجمع الثروة وتنميتها ، ولكنكم اتخذتم الجور والبغي سبيلاً الى الثراء في أكثر الأحيان . والخصومة التي تثور بينكم تعرض الدولة للخطر ، وأنا أريد ان تكون الدولة قوية بأمن مما تكيدون . بهذا وحده تستطيع ان تنعم وان تقاوم غارة العدو . ان هذا الطمع البغيض في المال الذي يغريكم لا يكفل لكم السعادة لأنه لا يرضي . فكلما اكتسب الانسان تمنى ان يزداد كسبه . سأنقص إذن ثروتكم بالقوة (التي أملكها) إذا لم تذعنوا لهذا راضين ، ولن أحتفظ لنفسي إلا بحماية القوانين وقيادة الجيش ، فأما ما دون ذلك فلا يعنيني . وأنا أريد ان أعيش بعد ان وليت الملك كما كنت أعيش قبل ذلك على حظ من المساواة مع أهون الناس شأناً . وسأعرف كيف أفرض

احترام القانون وكيف أفرض احترامي إذا لم أفرض خوفي .
وأريد ان يقال من حولنا ان أتيكا تدبر أمرها حكومة شعبية
لا حكومة طاغية . فكل مواطن سيستمتع بما يستمتع غيره به
من الحقوق السياسية ، لا عبرة بما يكون بينهم من اختلاف
المولد . فإذا لم تقبلوا ذلك عن رضا فقد أنبأتكم بأني أستطيع ان
أحملكم عليه كرهاً .

سأهدم بل سأمحو من الأرض محاكمكم الصغيرة المحلية ،
وسأهدم وأمحو من الأرض مجالسكم الإقليمية ، وسأجمع تحت
الأكروپول ما أخذ الناس يسمونه أثينا ، وقد وعدت الآلهة
الذين سيعينونني بأن الأجيال المقبلة لن تعظم إلا اسماً واحداً هو
اسم أثينا . وسأحرر مدينتي لپلاس [1] فأما الآن وقد سمعتم
فانصرفوا وأطيعوا .

ثم أضفت العمل الى القول ، فنزلت عن مظاهر الملك
ودخلت في الصف ، ولم أتهيب ان أظهر للناس جميعاً بغير حرس
شأني في ذلك شأن المواطنين جميعاً . ولكني كنت أعنى دائماً
بالشئون العامة محافظاً على الوفاق مقرّاً للنظام .

وقد استمع پيريتوس لهذه الخطبة التي ألقيتها على السادة ،
فقال لي إنها خطبة رائعة ، ولكنها سخيفة . وكان يعلل ذلك

---

(١) بلاس : اسم من أسماء آلهة أثينا حامية مدينة أثينا .

بأن المساواة بين الناس ليست طبيعية بل ليست شيئاً يبتغى . فمن العدل ان يتفوق الأخيار على طغام الناس بما تخوّلهم الفضيلة من امتياز . وهؤلاء الطغام إذا لم تُثر بينهم التنافس والتزاحم والغيرة ظلوا هامدين خامدين أشبه شيء بالماء الراكد الآسن ؛ فليس لهم بد من حافز الى العمل. فاحذر ألا يدفعهم هذا الحافز الى الثورة بك والانتقاض عليك . وسواء أردت أم لم ترد فإن هذه التسوية الأولى التي تطمح إليها وهي تكفل للناس جميعاً تكافؤ الفرص ليسعوا الى الحياة من مستوى واحد ، ستنتهي قطعاً الى الاختلاف والتفاوت ، فتنشأ طبقات تتأثر بما يتمايز الأفراد به من الكفاية وحسن البلاء ، ستنشأ طبقة العامة الشقية والأرستقراطية السعيدة .

قلت :

– إني أقدر ذلك وأرجو ان يكون في وقت قريب ، ولكني لا أدري لم تشقى العامة إذا كانت هذه الارستقراطية الجديدة التي سأرعاها ارستقراطية العقل لا ارستقراطية المال .

ثم أردت ان يزداد حظ أثينا من الخطر والبأس ، فأعلنت أنها تتلقى في غير تمييز ولا تفريق كل من يقبل عليها ليقيم فيها مهما يكن وطنه الأول ، وانطلق الدعاة من حول المدينة يصيحون : « أيها الشعوب ، هلم الى أثينا » .

وقد ذاع ذلك حتى بلغ أبعد الآماد . أليس هذا هو الذي

حمل أوديب ذلك الملك المخلوع البائس على ان يسعى الى أتيكا يلتمس فيها الجوار والحماية ويموت فيها آخر الأمر ؟ ويتيح لي ان أكسب لهذه الأرض هذه البركة التي كتبها الآلهة لمثواه الأخير. سأتحدث عن هذا الموضوع بعض الشيء .

وقد ضمنت للقادمين على أثينا نفس الحقوق التي يستمتع بها المواطنون الأولون، مؤجلاً كل تفرقة الى ما يسفر عنه الاختبار. فالاختبار وحده هو الذي يميز الخبيث من الطيب . ولم أرد ان أحكم على أحد قبل ان أتبين بلاءه . بحيث لا أحقق تفرقة بين الآثينيين في الطبقة والمنزلة إلا لمصلحة النظام العام إذا اقتضت الضرورة شيئاً من ذلك بعد الاختبار . وكذلك استحق الآثينيون وحدهم بفضلي أنا اسم « الشعب » الذي أطلق عليهم ولم يطلق إلا عليهم . هذا هو المجد الذي كسبته لنفسي والذي يربي على كل ما شيدت قديماً من مأثرة ، وهو مجد لم يبلغه هيرقل ولا جازون ولا بلليروفون ولا پرسيه .

ولم يتبعني مع الأسف پيريتوس زميل الصبا . أما الأبطال الذين سميتهم وأبطال آخرون من أمثال ميلياجر [١] وپيليه [٢]

---

(١) ميلياجر : بطل يوناني علمت أمه انه سيموت إذا التهمت النار عوداً كان في الموقد حين ولادته. فلما ولد أخذت أمه هذا العود فأطفأته واحتفظت به فعاش ابنها حتى شارك في مغامرات كثيرة خطيرة. ولكنه أحفظ أمه حين قتل أخويها فألقت العود في النار ولم يكد يحترق حتى مات البطل .

(٢) بيليه : أبو أخيل بطل الألياذة وقد ولد له من زوجه الإلهة تيتيس.

فإنهم وقفوا عند مآثرهم الأولى او مأثرتهم الأولى ولم يستطيعوا ان يتجاوزوها . ولم أرد أنا ان أقف عند هذه المآثر ، وكنت أقول لپيريتوس : هناك وقت لتحرير الأرض من الخوف الذي تثيره الوحوش ، ووقت آخر لاستثمار هذه الأرض المحررة . وقت لتحرير النـــاس من الخوف ، ووقت آخر لتمكينهم من الانتفاع بهذا التحرير وما يتيح لهم من أمن وسعة . ولا سبيـل الى هذا إلا النظام الدقيق. ولست أقبل ان يقف الرجل جهوده على نفسه كما يفعل البيوثيون[1] . ولا ان يجعل السعادة الخاملة غايته التي يسعى إليها . وكنت أعتقد ان الانسان ليس حراً وأنه لن يكون حراً ، وليس من الخير ان يكونه . ولكني لا أستطيع ان أدفعه الى أمام دون رضا ، ولا ان أبلغ منه الرضا إلا إذا خيّلت الى الشعب أنه حر. أردت ان أرتفع به ولم أقبل ان يظل راضياً بما قسم له حانياً رأسه من الذل . وكنت أرى ان الانسانية تقدر على أكثر من هذا ، وهي أكرم من ان ترضى بهذا . وكنت أذكر ما ألقى إليّ ديدال من العلم حين كان يزعم ان يورث الناس أسلاب الآلهة . وكانت قوتي تأتي من ثقتي بقدرة الانسان على التقدم .

هنالك تخلف عني پيريتوس ولم يتبعني ، وكان قد رافقني وأعانني كثيراً أثناء الشباب، ولكني تبينت ان استبقاء الصداقة

---

(١) البيوثيون : سكان في بلاد اليونان الوسطى قاعدتها ثيبا وكان اليونان يضربون بهم المثل في اكتفائهم بحياة الرخاء والغباء .

يقفنا عن السعي او يردنا الى وراء . هناك مواقف لا يستطيع الانسان ان يتجاوزها إلا وحيداً . وإذ كان پيريتوس راجح العقل فقد ظللت أسمع لأحاديثه دون ان أزيد على ذلك شيئاً . وقد تقدمت به السن ، فجعل يترك حكمته تستنيم الى القصد والاعتدال ، وهو الذي لم يكن يقنع بشيء . فلم تكن مشورته تهدف إلا الى التحديد والتقييد في كل شيء .

وكان يقول :

– ليس الإنسان خليقاً ان نشغل به أنفسنا الى هذا الحد .

وكنت أجيبه :

– وبماذا نشغل أنفسنا إذا لم نشغلها بالإنسان الذي لم يقل كلمته الأخيرة بعد ؟

وكان يقول لي أيضاً :

– هوّن عليك . ألم تقدم بين يديك ما يكفي من العمل ؟ الآن وقد ضمنت الرخاء والدعة لأثينا تستطيع ان تستريح الى الجد وإلى سعادة الزوجية .

وكان يلح عليّ في ان أعني بفيدر ، ولم يكن مخطئاً في هذه النصيحة على الأقل . فقد يجب ان أقص الآن ما أصاب حياتي المنزلية من اضطراب ، وهذا الحداد البغيض الذي أديت به الى الآلهة ثمن ما أتيح لي من نجاح وما اتصفت به من عُجب وتيه .

١٢

لقد كانت ثقتي بفيدر لا حد لها ، وكنت أراها تزداد جمالاً وظرفاً على مر الشهور. وكانت حياتها كلها نقاء وطهراً . وكنت قد استنقذتها صبية من بيئتها السيئة ؛ فلم أقدّر أنها استبقت من هذه البيئة بعض دواعي الشر . وليس من شك في أنها ورثت بعض خصال أمها ، وكان اعتذارها فيما بعد بأنها غير مسؤولة ، وبأن القضاء قد سخرها لما أراد ، يقوم على بعض الحق . ولكن لم يكن هذا كل شيء . وأظن انها كانت تسرف في ازدراء أفروديت . والآلهة ذوو انتقام، فلم يغن عنها آخر الأمر إلحاحها في ترضي الإلهة بالقربان والدعاء . فقد كانت فيدر تقية . كما كانت أسرتها . ولكن كان مما يسوء ان جميع أعضاء الأسرة لم يكونوا يخلصون لإله بعينه ؛ فقد كانت باسيفاييه مخلصة لذوس، وكانت أريان مخلصة لديونيسوس . أما أنا فكنت أعبد پلاس أتينيه وأعبد پوسيدون الذي تجمعني به صلة خفية ، والذي كان قد أخذ نفسه لشقائي بأن يستجيب لي حتى لم أدعُه عبثاً في يوم من الأيام . أما ابني الذي ولدته لي الأمازون والذي كنت

أوثره أشد الإيثار ، فقد كان يعبد أرتيميس إلهة الصيد . وكان عفاً مثلها بمقدار ما كنت أنا فاجراً في سنه . وكان يتتبع الأدغال والغابات عارياً تحت ضوء القمر ، ويتجنب القصر ومجالس الحكم ولقاء النساء خاصة . ولم يكن يرضى عن نفسه إلا بين كلاب صيده ، يتتبع بهن الى أعلى قمم الجبال وفي أسفل الأودية والوهاد هرب الوحوش . وكثيراً ما كان يروض الخيل الجامحة يجرين على رمال الساحل ليقحمن أمواج البحر . ما كان أشد حبي له في أطواره تلك ! فقد كان رائعاً أبياً متمرداً إلا عليّ بالطبع ؛ فقد كان يؤثرني بالإكبار والإجلال ، ولكن على الأوضاع التي تحد من سلطان الإنسان وتفل من عزمه . لقد كنت أريد ان أختصه بولاية عهدي ، وكنت خليقاً ان أنام هادئاً مطمئناً بعد ان أسلم أعنة الدولة الى يديه النقيتين ؛ فقد كنت أعرف فيه الامتناع على الرغبة والرهبة جميعاً .

ولم أقدر إلا بعد فوات الوقت ان من الممكن ان تصبو اليه نفس فيدر . وكان يجب عليّ ان أقدر ذلك ؛ فقد كان يشبهني حين كنت في سنه . وقد كانت الشيخوخة تسرع إليّ على حين كانت فيدر تحتفظ بشباب غريب . ولعلها كانت لا تزال تحبني ولكن كما يحب الآباء . وقد تعلمت على حساب نفسي ان ليس من الخير ان تبعد آماد السن بين الزوجين . ومن أجل ذلك لا ألوم فيدر في هذا الحب الذي لا يخالف قوانين الطبيعة وإن لم يخل من بعض الإثم ، وإنما ألومها ولا أغفر لها انها حين تبينت

ألا سبيل الى إرضاء هذا الحب اتهمت هيپوليت هذا الابن النقي الوفي بشهوتها الآثمة المنكرة . وقد كنت أباً غـافلاً ، وزوجاً واثقاً ، فصدقتها . وللمرة الوحيدة التي وثقت فيها بقول امرأة، ضللت السبيل فاستنزلت سخـــط الإله على ابني البريء . وقد استجاب الإله لدعائي والناس يدعون الآلهة ولكنهم يجهلون ان الآلهة يستجيبون لهم في أكثر الأحيان فيشقونهم ، وكذلك رأيتني قد خضعت لإرادة مفاجئة جامحة ضالة فقتلت ابني ، وما زلت لذلك جزعاً لا أجد سبيلاً الى العزاء . وقد أحسنتِ فيدر حين تبينت جريمتها فقضت على نفسها الموت . ولكني الآن وقد فقدت حتى مـــودة پيريتوس أصبحت وحيداً وقد أدركتني الشيخوخة .

وقد تلقيت أوديب منفياً من وطنه ثيبا قد فقد عينيه وبدا عليه الضر ، ولكنه على الأقل لم يكن وحيداً وإنمـــا كان بين ابنتيه يحمل إليه حنانهما ما يخفف من لوعة أساه . لقد كتب عليه الاخفاق في كل ما حاول ، وكتب لي النجاح في كل مـــا حاولت حتى ان البركة التي قضاها الآلهة للأرض التي تضم جثته بعد موته لم تتح لوطنه ثيبا ، وإنما أتيحت لأثينا .

وإنــه ليدهشني ألا يتحدث الناس إلا قليلاً عن التقائنا في كولونا[١] ، وعن هــذه المواجهة بين مصيرينا في آخر الشوط

(١) كولونا : ضاحية من ضواحي أثينا .

الذي كتب لكل واحد منا ان يقطعه . مع اني أنا أرى في هذا اللقاء قمة ما أثلت لنفسي من مجد ، وتتويجاً لما قدّمت بين يديّ من عمل . لقد أملت كل شيء ورأيت كل شيء يميل إليّ (إذا استثنيت ديدال ولكنه كان يكبرني جداً. ومع ذلك فقد خضع لي ديدال ، نفسه) . وكنت أرى عند أوديب وحده عزة تلائم عزتي ، ولم تكن المحن التي ألمّت بـه إلا لترفع في نفسي مكانة هذا المنهزم . لقد انتصرت من غير شك في كل مكان وفي كل وقت ، ولكن في مستوى إنساني متواضـع إذا قيس الى أوديب . أما هو فقد قهر أبا الهول ، وأقام الانسان أمام اللغز ، واستطاع ان يقفه بإزاء الآلهة. وإذن فكيف ولماذا قبل الهزيمة؟ بل ألم يشارك في تحقيق هذه الهزيمة حين فقأ عينيه ! لقد كان في هذه الجناية التي جناها على نفسه شيء لم أكن أستطيع فهمه . وقد أظهرته على مـا أجد من دهش ، ولكن تعليله لم يكد يقنعني . ذلـك شيء يجب ان أعترف به ، ولعلي لم أحسن الفهم عنه .

قال لي :

— من الحق اني استجبت لثورة جامحة من الغضب ، لم أكن استطيع ان أوجهها إلا الى نفسي ، فعلى من كنت أستطيع ان أثور ؟ لقد رأيت هول هذه التهم المنكرة التي ظهرت لي ، فلم أجد بداً من ان أنكر وأحتج . ومع ذلك فلم أكن أريد ان أفقأ عيني بمقدار ما كنت أريد ان أشق هذا المنظر الذي يلؤم

الكذب والذي فقدت الايمـــان به والذي كنت اضطرب بين مظاهره ، بل لم أكن أفكر في شيء وإنما دفعتني الى ما عملت . فقأت عينيّ عقاباً لهما على انهما لم تريا شيئاً كان من الوضوح والبداهة بحيث كان خليقاً ان يفقأ عيني ، كما يقال ... لست ادري كيف أبيّن لك عن ذلك ... فلم يفهم احد تلك الصيحة التي بعثتها يومئذ : « إليّ ايتها الظلمة . انت ضوئي » . وأشعر انك انت ايضاً لا تفهم هذه الصيحة . لقد سمع الناس من هذه الصيحة شكاة ، مع انها لم تكن إلا ملاحظة للحقيقة الواقعة . كانت هذه الصيحة تعني ان الظلمة قد بددها بالقيـاس الى ضوء خارق للطبيعة يغمر عالم النفوس . وكانت هده الصيحة تعني : ايتها الظلمة ستكونين منذ الآن ضوئي . وفي الوقت الذي كانت الظلمة فيه تحجب عن عيني جمال السماء كانت سماء أخرى داخلية قد اخذت تتألق فيها النجوم .

ثم سكت ولبث لحظة مغرقاً في تفكير عميق ، ثم قال :

– لقد كانت تظن بي الفطنة اثناء الشباب . وكنت أرى نفسي فطناً . ألم أكن اول من اجاب ! بل ألم اكن الوحيد الذي اجاب على سؤال ابي الهول [ولكن يخيل إليّ اني لم آخذ في النظر الصادق الصحيح إلا منذ فقأت عيني بيدي وحلت بينهما وبين الضوء . اجل ! في الوقت الذي يحجب فيه العالم الخارجي عن عيني الى آخر الدهر تتاح لضميري نظرة جديدة الى عـالم داخلي كان العالم الخارجي يشغلني عنه ويحملني على ازدرائه] .

وهذا العالم الذي لا يحس والذي لا تستطيع حواسنا ان تطمع في بلوغه ، هو فيما اعلم الآن وحده الحق . فأما ما عداه فوهم يخدعنا ويصدنا عن مشاهدة العالم الإلهي «يجب ان تنصرف عن رؤية العالم لترى الإله» . كذلك كان يقول لي ذات يوم ذلك الحكيم الضرير تيرسياس ولم اكن افهم عنه حينئذ كما أرى الآن يا ثيسيوس انك لا تفهم عني .

قلت :

— لا احاول ان انكر خطر هذا العالم الذي تستكشفه منذ فقدت عينيك ، ولكن الذي لا افهمه هو انك تجعل هذا العالم ضداً معانداً للعالم الذي نراه ونعيش ونعمل فيه .

أجاب :

— ذلك ان نظرة الضمير هذه اظهرتني لأول مرة على ما لم اكن أرى ، فاقتنعت بهذا الذي ستسمعه . لقد أقمت ملكي الانساني على جريمة فنشأ عن ذلك ان اصبح كل ما اتيته بعد الملك ملوثاً ، لا بالقياس الى ما صدر عني انا من قول او عمل فحسب ، بل كذلك بالقياس الى ابنيّ اللذين تركت لهما التاج : فقد تركت من الفور ذلك الملك المخزي الذي ساقته إليّ الجريمة . وأنت تستطيع أن تعرف إلى أي جريمة جديدة دفع ابناي وأي قضاء مهين مخزٍ قد ألحّ على كل ما تلد الإنسانية الخاطئة . وليس ابناي إلا مثلاً صارخاً لهذه المحنة . فهما ثمرة الإثم ، وهما من أجل ذلك

أشد ملاءمة لهذه المحنة . ولكن يخيل إليّ أن هناك إثماً مستأصلاً قد شقيت به الإنسانية ولن ينجو من آثاره أحد حتى الأخيار ، إلا أن تنال الإنسانية رحمة تغسل عنها هذا الوضر .

ثم عاد إلى الصمت لحظات كأنه كان يريد أن يمعن في التفكير إلى أبعد مما بلغ ، ثم قال :

– إنك تدهش لأني فقأت عينيّ ، وأنا أيضاً دهش . ولكن لعل في هذا العمل الأحمق القاسي شيئاً آخر هو هذه الحاجة الخفية إلى أن أدفع حظي إلى غايته ، وأبلغ بألمي أبعد آماده وأتم بذلك مصيراً من مصاير الأبطال . ولعلي أحسست في غير وضوح ما في الألم من جلال وتطهير للنفوس يكره البطل أن يمتنع عليه . وأعتقد أن هذا هو الذي يثبت عظمته ، وأنه لا يرقى إلى العظمة حقاً إلا حين يسقط ضحية ، فيكره بذلك الآلهة على أن يعرفوه ، وينزع من أيديهم سلاح الانتقام . ومهما يكن من شيء فإن خطاياي وآثامي مهما تبلغ من الشناعة والبشاعة ، لا تمنعني الآن من أن أجد سعادة داخلية رائعة تكافىء كل ما لقيت من ألم وما شقيت به من بؤس . قلت حين رأيت أنه أتم حديثه :

– أيها العزيز اوديب ، لا يسعني إلا أن أثني على هذه الحكمة التي تصطنعها والتي تتجاوز طاقة الإنسان . ولكن تفكيري لا يستطيع أن يرافق تفكيرك في هذه الطريق . فأنا ابن هذه

الأرض ، وسأبقى ابنها ، وأرى ان الانسان كائناً من يكون ومهما يكن حظه من هذا الإثم المستأصل الذي تشير اليه ، يجب ان يلعب بالورق الذي أتيح له في هذه الدنيا : وأكبر الظن انك قد أحسنت الانتفاع بما كتب عليك من البؤس . ولعلك قد أمعنت في ذلك حتى أتيح لك الاتصال بهذا الذي تسميه الإله ، بل أنا اعتقد ان نوعاً من البركة يتصل بك ، ويحل كما يقال في الأرض التي تضم جثتك بعد الموت .

ولم أضف ان الذي كان يعنيني هو ان تكون هذه الأرض أرض أتيكا ، وكنت أهنىء نفسي بأن الآلهة قد اهدوا إليّ ثمرة تيبا .

وإذا وازنت بين مصيري ومصير أوديب فأنا سعيد ، لأني أديت ما كان يجب ان اؤدي . فأنا أترك للإنسانية مدينة أثينا. لقد آثرتها على ابني وزوجي، وجعلتها مدينتي . وستسكنها بعد ان أموت ذكراي الى آخر الدهر . وأنا أسعى وحيداً راضياً الى الموت . فقد ذقت ثمرات الأرض . ويلذ لي ان أفكر في ان الناس بعدي وبفضلي سيرون أنفسهم خيراً منا وأسعد منا وأدنى منا الى الحرية . لقد أبليت في خدمة الانسانية المستقبلة ما استطعت . لقد حييت .

الفهرس

صفحة





هذا الكتاب

● « اوديب » هو ذروة الصراع بين مشيئة القدر ونضال الإنسان في تحدي تلك المشيئة .

● و « ثسيوس » هو ... عبث الحياة رغم خصبها التوفز ، ثم فقدان العزاء والسلوان.

● في هذه المسارب الفكرية الجديدة أفرغ « اندريه جيد » الأسطورتين الاغريقيتين وكساهما من عبقريته ... في الشكل وعمقاً في المستوى .

● ثم ... « طه حسين » فاضفى عليهما حين نقلهما إلى العربية ، من فنه الرائع وأسلوبه المبين الأخاذ ، ... قشيباً ، فإذا هما آيتان من آيات الفن المسرحي الحديث .